قصص



المجموعة القصصية الثالثة

أحمد ابراهيم الفقيه



قصص

المجموعة القصصية الثالثة

أحمد إبراهيم الفقيه

الكوشة

الساعات الأولى من كل ليلة، تتسرب من بين أصابع الظلام غارقة فى لجة الصمت. البقالات الصـغيرة بالقريـة تطبق جفونها بعد نهار طويـل يـزحم بالبيعـات البسـيطة والانتظار المرير..

" هويدي" يقفل مقهاه... المقهى الوحيد الذى يبعثـر فيه شباب القرية ما تجمع لديهم من فراغ.

الصمت يبتلع آخر... تيك تاك ... يلفظها مـاطور القرية الهرم.

فجأة تنطمس مصابيح الضوء التى تناثرت فى جهات متفرقة من القرية، والتى تستمد مقومات حياتهـا مـن هـذا الماطور الهرم، فيبرز الظلام أكثر حلكة وكثافـة ويسـتكمل الليل معناه. نيام.

الكل فى هذا الوقت ينامون.

المتصرف ينام وشيخ القرية ينام، وسعدون الشحات ينام، كلهم هؤلاء الذين كانوا يملئون الدنيا صخباً وضـجيجاً بمشاكلهم الصغيرة، ينامون، يلقى كل مـنهم بجسـمه علـى سرير أو فوق بساط من تراب ... ويغمض عينيه... ويعلو

شخيره.. منتشياً بالإغفاءة اللذيذة... منغمساً فى عوالم لونها الأحلام.

حتى رجل البوليس القائم " بالدوارية" ليلا... لا بـد أن يخضع للخاطر الذى يلح عليه.. فيبحث لنفسه عن مكـان أمين... يليق بإغفاءه مسروقة.. ومن ثـم ينطـرح ويتمـدد مستسلما لسلطان الكرى..

كلهم ينامون...

شخص واحد... فقط شخص واحد ... يظل طـول الليل لا ينام.. هذا الشخص هو عمى عبد العـالى صـاحب "الكوشة"الوحيدة بالقرية فهو عليه أن يظل ساهراً أمام فـرن الكوشة طول الليل ... يحمى ... ويمسح ... ويرمى الخبز ... ويطرد من عينيه النعاس... والخبـز لا بـد أن يكـون جاهزاً مع بواكير الصباح، يشره الناس بسـخونته اللذيـذة. حتى يستطيع ابنة الوحيد مفتاح الذى يبيع الخبز فى الصباح أن يواصل نداءه على الخبر بصوته الرقيـق الـذى يقطـر اعتزازاً وفخراً كما يفعل كل يوم سخون، كيف طـالع مـن ناره، إيبوخ. ياللى يتفطر فطورى عندى.

وعم عبد العالى صابر، الحياة هكذا تريد.. الخبـزة تبنى والضنى غالى.. وهو لا يروم الصبر من أجـل لقمـة العيش فقط... بل وكذلك من أجل طفله الصغير.

- أمالا كيف الكبد حرفه.

ومن خلف الغلالة المتغضنة الكئيبة الحزينـة التـى تنسدل فوق وجه عم عبد العالي... كانت ابتسـامة صـغيرة تأخذ طريقها للتربع على شفتيه.

متخافش يا فتوحة يا ولدى، باباك على مـن يخـدم، أفكان مش عليك.

وتدوب.. شيئا.. فشيئا.. البسمة التى طفحـت فـوق صفحة الوجه المتعب المكدود.

كلاب ... تمزق حجب الصمت بنباحهـا المتكـرر التهنيد، صياح ديك يثقب جدار الليل.

قطط رعناء...تتناوش.. وتموء مـواءاً ممطوطـاً، ينكسب فى جوف الظلام، حزيناً كئيباً... يفتت الكبد.

والنار وسط الفرن تستحيل إلى هباب وركام.. وعـم عبد العال وحده من أحزان الليل العرق ينـز مـن وجهـة المتغضن، يداه تمتدان إلى قضيب طويل من الخشب، برأسه أثبتت خرقه متهربة بالية...

ويلوج بالخرقة فى جوانب الفرن الحالكـة السـواد، يمسح رمادها، ويسبح بنظره الكليل فى سوادها هذا السـواد الذى زحف على أيامه فصبغها بلونه المعتم. وأغنية حزينـة تتكسر على ضفاف الصمت... يلوكها فم عم عبد العالي...

ليام ... يا ليام ..... يا ليام

ليام يا عالم على ما فيهم

أوقات تحزنوا، وأوقات نزهى بيهم

ليام... يا ليام... يا ليام.

ومصباح الغاز الأزرق الكابى ينساب بلهاتـه بـين تغضنات جدار الكوشة.. وتغضنات وجه عم عبـد العـالى فيبرزه تناسقاً وانسجاماً بين كلا الاثنين ... حتى لكان الجدار جزء من تقاطيع عم عبد العالي... أو وجه عم عبد العـالى جزء من جدار الكوشة.

مسام هذا الوجه الضارب إلى السمرة... تتشرب كل ليلة الصهيد الذى ينفثه قلب الفرن... تتشربه حتـى الثمالـة ... ثم تتقيأه فى الأخر بلورات صغيرة تلمع علـى صـفحة الوجه فى ضوء المصباح الكابى. أقراص الخبـز لا تـزال عجينة.

وهى ترقد بطوابيرها الصغيرة التى يجـوس بينهـا الصمت فوق قطعة عريضة من الخشب على مقربة من عـم عبد العالى كحملان وديعة أعدت للذبح، والقضيب الخشـبى الرفيع الذى ينتهى بطرف مفلطح كاليد العريضة المبسـوطة أمام قارئ الكف... يمسكه عم عبد العالى بين يديه.. ثم يأخذ فى سحب أقراص العجين على طرفه المفلطح.. ويرمى بهـا فى قلب الكرشة...

الأيام ..... يا ليام ....يا ليام

ليام يا عالم على ما فيهم

أوقات تحزنوا وأوقات نزهى بيهم

ليام .... يالأيام.

الأغنية الحزينة الذى يلوكها فم عم عبد العـالى، لا تزال تنكسر على ضفاف الصمت.. النعاس يتسلل فى حـذر إلى عينيه.. يتسلل إليهما على رؤوس أصابعه.

الأغنية الحزينة لم تفلح فى التصدى له...

والجبهات التى تقف فى وجه عم عبد العالى تعددت. الصمت والظلام، وأحزان الليل. ثم الأخطر وهـو النعـاس ملعون هذا النعاس.

عم عبد العالى رغم أنه اعتاد أن يأخذ قسـطاً مـن النوم أثناء النهار... إلا أنه اليوم لم ينم. اليوم بطوله لم يذق للنوم طعماً. وهو شئ خارج تماماً عن إرادته.. هـذا الـذى جعله لا ينام ... ذلك أنه فى صبيحة كل يوم، بعد أن ينهـى عمله فى الكوشة. كان يأخذ الفـأس والبردعـة والحبـال و "مطرة الماء" التى لا ينسى أن يبلل الخيشة التى تغفلها حتـى يبرد ما بها من ماء ويفرش البردعة على ظهـر الحمـارة ويضع فوقها الأشياء الأخرى ثم يحوشها أمامه مـاراً بهـا وسط القرية حتى إذا ما ابتعد عـن أعـين النـاس قـال — أشتش... إش..

وتقف الحمارة فيعتلى ظهرها. ويهز فوقها رجليـه. ويهمزها بعود صغير بين كتفيها. فتسرع به السـير. حتـى يصل إحدى الشعاب، حيث يجمع بالفأس الـذى معـه مـن الحطب ما يكفى لحمى الكوشة فى ذلك المسـاء. ومـن ثـم يحزمها بالحبال، ويحملها ظهر الحمارة، وبعدها يعود إلـى البيت حيث يجد "إذهيبة" زوجته قد أعدت العجينـة للكوشـة فينام ما تبقى من وقت حتى يحين موعد إشعال النار.

إلا أنه اليوم عندما عاد من التحطيب. كان الدقيق لا يزال كما هو لم يعجن... و"إذهبية" هى الأخـرى وجـدها

طريحة الفراش. وعجوز من جارتها كانت تقف عند رأسـها وبيدها مجمرة صغيرة يتصاعد منها البخـور فـى حلقـات مختلطاً فى الجو بما تحوقل وتمتم وتدعو به مـن دعـاوى وتبريكات... وقد همست العجوز فى إذنه... بأنما أصـاب امرأته هو من دلائل الحمل... وأن مولوداً جديـداً سـيعمر البيت غداً.. أبو بعد غد..

ورغم الفرحة التى زغردت بها أعماقه لم يقل شيئاً.. خرج من الدار... وابتسامة مشعة مثقلة بالسرور والغبطـة تتراقص فى مرح على شفتيه..

وكان أن قضى كل الساعات التى اعتاد أن ينامها... كابيا على الوعاء الكبير يصب الماء...

ويصب الدقيق ليعد العجين.. وهكذا لم ينم. وهو الآن يكابد الشيء الكثير ليظل محتفظاً بيقظته. ملعون هذا النعاس.

الفتور يتسرب إلى ذراعيه ويديه.. ويصيب بالعدوى القضيب الخشبى الذى يدفع به أقراص العجـين إلـى قلـب الكوشة...

الأغنية الحزينة تتعذب على شفتيه..

الطنين يملأ رأسه.. النعاس يثقـل عينـه.. جفونـه تنطبق وتنفتح بين لحظة أخرى.. وصورة الطفل الذى سيولد

غداً أو بعد غد تتراقص أمام عينيه. سيكون جميلاً.. لا بد أنه سيكون جميلاً.. وسيفتح فمه الصغير ويقول "بابا" هـو الآن ينام ملء جفنيه فى بطن أمه ولكن هل سيلاقى هذه النومـة الهنيئة بعد أن يولد... سيلاقى لماذا لا ... آه.. ماذا لو كـل الناس لم تولد. ماذا؟.. ماذا لو هو نسه عبد العالى المخزومى لم تلده أمه. طبعاً لكان استراح من هذا البؤس الذى يعيشه.. ولكنه.. أيوه.. سيتغلب على هذا البؤس ... هـذا المولـود الجديد ماذا سيسميه المخزومى... تيمنا باسم والده لا سيسميه صالح ... لالا. المبروك.. هـو هـذا خـلاص سيسـميه المبروك... مبروك إنشاء ا .

علينا وعليكم.

وعيناه ترمشان فى سرعة وخفة. والصورة المتعددة المتنوعة المختلفة التى يعج بها رأسه... تتداخل فى بعضـها البعض.. وتمور وتختلط وتتشابك ... محدثة دوامة صغيرة.

وعلى سطح هذه الدوامة تطفـح صـورة.. يتبينهـا تومض.. وتوهج فى وضوح.. صورة طفل صغير، سـيولد غداً أو بعد غد...

وتتضخم الصورة...

تتضخم وتتضخم.. حتى تملأ عليه رأسـه وعينيـه والكوشة. ثم لا شيء يترآى أمامـه ... لا شـيء.. سـوى صورة الطفل الصغير، الجميل الذى سيولد غدا أو بعد غـد. وتهمد رموش عينيه، وير قد رأسه على كتفه مسـتندا إلـى الجدار. والقضيب الخشبى الرفيع ينام فى هدوء على صدره. والطوابير الصغيرة المتبقية من أقراص العجين التى بحوس بينها الصمت... تركن إلى نفسها فوق القطعة العريضة من الخشب ... وكأنها حزينة على أخواتها التى احترقت فى قلب الكوشة المعتم السواد.

وكلاب.. تمزق حجب الصـمت بنباحهـا المتكـرر العنيد. وصياح ديك.. يثقب جدار الليل.

وشخير منغوم، يتسلق جدار الكوشة وكأنه يريـد أن يمحو ما غلفتها به الأيام من سواد.

المحطة الأخيرة

ما أن فتحت الباب ورأيتها جالسة قرب النافذة وقد جاءت سحابة من عطرها تغمر وجهي – حتى امتلأ رأسي بموسيقي الحمي والجنون تعزفها فرقة تفنن أصحابها في العزف على الطبول برؤوسهم وكعوب أحذيتهم، ومضى عازف قيثارتهم يعض الأوتار عضاً ويعزف عليها بأسنانه ويغني بطريقة كأنها العواء، وقفت بالباب لحظة التقط أنفاسي وأريح ذراعي من عناء الحقيبة التي أحملها معي، رفعت المرأة نحوي عينيها، فاشتعلت في منطقة من ذاكرتي أنوار الملاهي الليلية التي تنطفئ وتضيء مستعيرة أسلوب سيارات الحرائق والإسعاف وشرطة مكافحة الجريمة، والبشر الذين يرقصون تحت هذه الأضواء رقصاً هستيريا كأنه صلاة لاله العنف والجنس والجريمة، استأذنتها في الجلوس، حركت المرأة رأسها بالأذن، وتحركت في رأسي مشاهد من أشرطة الجاسوسية التي تختلط فيها المطاردات "البوليسية" بأعنف المغامرات العاطفية، شيء ما حول هذه المرأة كان ينضح إثارة وإغراء وجنساً. وكانت تجلس في هدوء إلى مقعدها،

تقرأ باهتمام كتاباً كبير الحجم نشرته فوق ركبتيها، وتستعمل للقراءات نظارات طبية كأنما أذابت عينيها في التحصيل والمطالعة، وترتدي "جاكيتة" رمادية وتضع حول عنقها شالاً كثير النمنمات، أجادت تغليف نفسها في هذا الصباح الخريفي الذي استعار شيئاً من نهارات الشتاء، وبرغم هذه الأغلفة فإن لها جمالاً من ذلك النوع الذي لا بد أن يعلن عن نفسه مهماً تعاظم حوله الحصار، جمالاً ذا طبيعة هجومية، له نمور ما أن تقترب منه حتى يرسلها على الفور لافتراسك، وهي كما بدا لي تحس بالحرج الشديد لأنها جميلة كل هذا الجمال، وأن لجمالها هذا الطابع المتوحش، المتنمر، الهجومي، إنها تستعمل هذه النظارات وترتدي كل هذه الثياب وتضع فوق حجرها أكبر الكتب حجماً في محاولة مستميتة لكي تحد من عنفوان هذا الجمال وطغيانه، إنها تمتنع عن سقي هذه الشفاه بالروج أو حتى بالرضاب عليها تبدو ذابلة عطشي، وتحاصر هذا الصدر النافر المتمرد بأكثر أنواع الألبسة وقاراً وحشمة وتقسو في سجنه تحتها، وترتدي أكثر الألوان انطفاء وهو اللون الرمادي وتشتري شالا طوله ألف ذراع تطويه حول جيدها كي تمنع النور الذي يأتي من رخامه أن يشع ويتلألأ،

أما تلك العيون ذات الرموش الطويلة الغزيرة التي ترسل وهجاً مثل الأسلحة التي تستعملها كائنات الكواكب الأخرى في أفلام لخيال العلمي، قادراً على الفتك والإيذاء، فقد حاولت معالجتها بارتداء هذه النظارات التي تستخدمها الآن للقراءة، إنك تحس منذ الوهلة الأولي أنها بذلت جهداً فظيعاً لمحاصرة هذا الجمال وطمسه وسجنه، لأنه لا شك كان مصدر إزعاج لا حد له في كل مراحل حياتها، وأنه جعلها لا تسكن حياً إلا نشبت حولها المعارك بين فتيان الحي، ولا تخرج إلى شارع إلا خلقت زحاماً أثار فضول رجال الأمن والنظام، ولا تدخل مطعما أو مقهى أو متجراً أو منتدى إلا ترك الناس شغلهم وتفرغوا للنظر إليها، ولعلها استطاعت منذ أن اهتدت إلى هذا الأسلوب وتفننت فيه ووصلت إلى مستوي عال في التعامل مع هذا الجمال وتهجينه وترويضه، أن تمر في الشارع وتذهب إلى المطعم أو المقهى وقد اطمأنت إلى أنها ستنجو من تلك التظاهرات والمعارك، فقد أحسنت صنع الأقفال كي تبقي كل هذه النمور حبيسة أقفاصها، ولعل هذا ما يجعلها تجلس هادئة إلى كرسيها غير مدركة إلى أن النمور لن تحتاج إلا إلى سائح من بلاد شرقية مثلي يحمل

نهماً للحياة حتى تقفز من أقفاصها وتحطم سلاسلها وأقفالها وتأتي لتنشب أظافرها وأنيابها في لحمه.

كان الضباب كثيفاً بالخارج يقعي كقطعان من الضباع على مسافة أمتار من المحطة، كنت قد ارتميت إلى مقعد بجوار الباب في الصف المقابل لها، تمنيت لو أنني وجدت في نفسي الشجاعة لأنه أجلس بالمقعد الذي يحاذيها أو الآخر الذي يقع مباشرة أمامها، وستكون فرصة الحديث معها أكثر يسراً ولكنني ماذا أفعل لهذه الطبيعة الخجولة التي رافقتني طوال العمر، يكفي أنني وجدت الشجاعة لأن أجلس في مقصورة واحدة معها، ولم أهرب فراراً من هذا الحرج الذي يبعثه في نفسي جمالها، حمدت ا أن تحرك القطار قبل أن يداهم المقصورة عدد آخر من الركاب يحتلون المقاعد التي تفصل بيني وبينها. لم يكن عندي وقت لشراء صحيفة أو كتاب أشغل به نفسي أثناء هذا السفر، لقد لحقت بالقطار في لحظاته الأخيرة، وهي اكتفت بقراءة كتابها ولم تعد في حاجة إلى أن تبحث عن شيء آخر لتزجيه الوقت مثل الدخول في حديث عابر مع رفيق غريب في القطار، إنها لا ترفع رأسها عن الكتاب، فهي تبني بهذا الكتاب سوراً حولها

تمنع به أي متطفل يفكر في الاقتراب من حدائق قصرها، بدأت أستعمل أساليب الإسقاط في تبرير خيبتي معها وعجزي عن فتح حديث بيني وبينها، وأدعي واهماً أنه سيكون لي شأن آخر مع هذه المرأة لو أنني استفردت بها بعيداً عن هذا الكتاب اللعين، نظرت إلى الأشجار التي تفر والحقول البعيدة التي تغلفها غبشة الصباح فوجدت شيئاً أشغل به نفسي، سأقرأ أنا أيضاً في كتاب الطبيعة، وبدأت أمنح تلك الأشكال التي يغلفها الضباب معاني أخري، أجعل من بعضها خياماً وأجعل من بعضها الآخر فرساناً يرتدون لباساً أبيض ويركبون جياداً بيضاء ويتصاعد من حولهم الغبار الأبيض، ولكن الطبيعة فجأة اختفت، فقد دخل القطار نفقاً واكتشفت أن بداخل عربات القطار أضواء باهتة صفراء ما كنت لألحظها لولا ظلمه النفق، ورأيت المرأة تتحول إلى ما يشبه الصورة التي تخيلها الرسامون للسيدة مريم العذراء، رأيتها تكتسب فجأة هالة من القداسة منحتها جمالاً هادئاً مشعاً غريباً وبدت كأنها لا تنتمي إلى عالمنا، هي قديسة ترتل إنجيلها وتؤدي صلاتها في معبد مهجور يقع على قمم أحد الجبال وهي هاجدة في الهزيع الأخير من الليل تتعبد وحيدة علي ضوء

القناديل. خرجنا من النفق وانسحب عنها ذلك الرداء المقدس، عادت تلك الموسيقي الصاخبة تتصاعد من صدرها وشفتيها وعينيها وعادت أشرطة الجنس والجريمة تتوالد من شعرها الأشقر المتهدل كالعراجين فوق كتفيها وعادت سيارات المطاردة وإطفاء الحرائق تخرج من صفحات الكتاب المفروش فوق ركبتيها، وتصورت لها على الفور عدداً من العشاق، فهي عائدة الآن من زيارة كانت تقوم بها إلى عشيق آخر تذهب إليه في الأرياف بعد أن اشترى لها قصراً هناك، إلى عشيقها الذي يعيش في المدينة والذي انتقل للإقامة معها بعد أن طلق زوجته وشرد أطفاله وترك وظيفته ولسوف تطرده غداً أو بعد غد فقد استنفدت كل أمواله، وهناك أيضاً ذلك الطالب الذي أوقعت به وهو الآن قد ترك الدراسة وذهب ليتسقط لقمته على أعتاب الخمارات وعلب الليل، والرابع والخامس أو السادس الذي صرف عليها كل نقوده حتى بارت تجارته وأقفل دكانه أو شركته وأعلن إفلاسه، والسابع أو الثامن الذي فقد منصبه أو فقد عقله، وصنعت لها علاقات ببعض أهل السياسة لعل أحدهم يعمل الآن وزيراً ولكن منافساً له على قلب هذه السيدة الجميلة يعمل رئيساً

لتحرير إحدى الصحف سوف يرتب فضيحة لهذا الوزير تهتز لها الأوساط السياسية وتسقط بسببها الحكومة ويفقد الحزب الحاكم ثقة الأمة، ثم طردت كل هؤلاء العشاق، واحتفظت لها بعاشق واحد، ولكي يستطيع أن يسيطر على هذه الفتنة فقد تصورته جلفاً قاسياً قوي البنية، واخترت له مهنة عنيفة فهو برغم عينة الواحدة، الرجل الثاني في عصابة كبيرة تشتغل بالتهريب وتجارة المخدرات، أردت أن يكون الرجل الثاني، لأنه رجل العمل، الموكل إليه أمر التنفيذ، الرجل الأول يكون دائماً للتخطيط والتفكير، وأنا لا أريده أن يكون عقلاً، أنه مجرد ذراع فولاذية يحركها ذلك العقل، ثم لا بأس من أن أحتفظ له بمسافة في أعالي السلم لكي يصعد إليها فيما بعد بطريقة تكشف عن أوجه أخرى لسلوكه أكثر قبحاً وبشاعة عندما أضع في طريقه عصابة أخري أجعلها تستعمله في تدبير مؤامرة للرجل الأول صاحب الفضل في تكوينه ودفعه لأن يكون الرجل الثاني في العصابة، تأسفت في خاطري لهذه العلاقة التي تربطها بالرجل ذي العين الواحدة، يكفي هذا لفارق في السن بينهما، فهو برغم جلافته وضخامة جسمه وصحة الثور التي يملكها

يقترب من الخمسين بينما هي لم تتجاوز العشرين إلا بعام أو عامين، ثم ليته يعرف قيمة هذا الجمال، حتى لو كان يعرف فهو يأبى إلا إذلاله وقهره، إنه يري نفسه شريكاً في معركة لا بد أن ينتصر فيها قبحه وجلافته ووجه المليء بالنتوءات ورأسه المفلطحة الخالية من الشعر، على جمال هذه المرأة وفتنتها والسحر الذي يضوع من عينيها، وشعرها وعنقها وجبينها وصدرها وشفتيها لأنه لو فعل غير ذلك كانت هزيمته محققة ولفقد هذه الأنثى البديعة إلى الأبد، لقد انتصر عليها وجاء منذ البداية يعاملها بهذه القسوة وكأنه ينتقم باسم كل أصحاب الوجوه القبيحة في الدنيا من هذه المرأة التي تتعذب بالنيابة عن كل الكائنات الجميلة فوق الأرض، بل أكاد أكتشف في سلوكه طبيعة مرضية، سادية، تلتذ بإيذاء المرأة وتعذيبها، فهو ينضو الثياب عن جسمها بطريقة بدائية كلما أراد معاشرتها، إذ يصر على تمزيق هذه الثياب بأظافره قطعة قطعة حتى تتعرى المرأة تماماً، بل إنني أعرف على وجه اليقين أنه لا يكتفي بضربها بيديه وقدميه بل هو يستعمل الكراسي والصحون وقطع الأثاث وأدوات المطبخ في تأديبها كلما حاولت أن ترفع صوتها في وجهه، وبرغم ما يبدو الآن

على مظهرها من كبرياء الملوك، فإنني أعرف كيف تتوجع وتتألم وتصرخ وتركع تحت قدميه باكية ذليلة تطلب عطفه ورحمته ولكن ذلك لا يزيده إلا هياجاً وشبقاً ورغبة في إيذائها واحتقارها، ليتأتى له بعد ذلك أن يعاشرها بطريقة أشبه بالاغتصاب. رأيت خدشاً صغيراً في صدغها الأيسر فتأكدت كل هواجسي، تيقنت الآن أن أظافره تصل إلى وجهها وهي تحاول إخفاء تلك الآثار تحت خصلات من شعرها وتستعمل هذا الشال الثقيل لإخفاء الجروح التي تغطي نتيجة التعذيب عنقها.

تبخرت تلك الجياد التي كان يصنعها الضباب وجاءت شمس الصباح تغسل تلك الحقول الخضراء التي تترامى بحد الأفق، وبدا الكون مبهجاً جميلاً، وأحسست أنني أقع بلا مقاومة في حب هذه المرأة التي يتفجر فمها الشهي بالرغبة المحرمة، رأيتها ترفع وجهها عن الكتاب وتمسح بنظرة خاطفة أرض المقصورة حتى تصل إلى فتستقر للحظة على وجهي كأنها تكتشف وجودي لأول مرة، أحسست برعشة تسري في بدني كأنني تسللت خلسة إلى مخدع الملكة التي سوف تطلب من الحراس قتلي، هبطت بنظراتي إلى

الأرض كي لا ألتقي بعينيها خوفاً من أن تكون قد اكتشفت الأفكار التي تدور في رأسي، عادت إلى كتابها وقد غفرت لي وعفت عني، ندمت لأنني ملئت حياتها بكل هذا الرعب وأحكمت حولها حلقاته كأنها الدوائر الثلاث السفلي في جحيم دانتي، وحمدت ا أنه ليس لأفكارنا صوت وإلا لصرخت تطلب النجدة لو أنها سمعت ما كنت أقوله عنها في سري، لأكن شجاعاً وأبادرها بكلمة طيبة عن جمال هذا الصباح قلت في خاطري ولكن الخجل الذي يرافقني طوال عمري يريدني أن أبقي صامتاً أنتظر أن تبدأني هي بالكلام ويجعلني أقطع على نفسي عهداً بأن أمتنع عن حب كل النساء إلى أن أحد امرأة فائقة الجمال تأتي وتبادرني بالحديث، فأمنحها بعد ذلك حبي، تذكرت أن في حياة هذه الأنثى غولاً يضرب عليها حصاراً ويمنع عنها مخاطبة الغرباء، إن شبح الرجل القبيح يرافقها أينما ذهبت، أنه يحصي عليها نظراتها وكلماتها وخطواتها بل هو يرسل العسس وراءها، ولا بد أن واحداً منهم ينظر إلينا الآن من ثقب هذا الباب، إن المسكينة لا تستطيع أن تفر من قبضته وقد هددها بالقتل إن هي فكرت في هجرانه ومع ذلك فلا بد أن هناك طريقة ما لانقاذها،

لماذا لا تتركه وتسافر إلى بلد بعيد مقطوع الصلة بهذه البيئة التي تنضح إجراماً وقهراً، ولكن تبقي مشكلة أخري، إذ من أين لهذه المسكينة تدبير مبلغ يتيح لها السفر والإقامة، وهي من أصل متواضع جداً، إنها من عائلة فقيرة إلى حد التسول، ولقد اشتد بأمها مرض الحمى ولم تجد علاجاً فماتت واستقر المقام بوالدها في إحدى بيوت العجزة، حتى الخالة التي تقطن الريف والتي لا يسمح لها ذلك الجاف بزيارتها إلا مرة أو مرتين كل عام، تعيش وحيدة تنتظر إعانة منها، إنها الآن في طريق العودة من زيارة قصيرة قامت بها إليها، وهي تدخر كل قرش إضافي من أجل تقديمه لهذه الخالة العجوز، ما أنبل طبعها، بقيت للحظة متألماً أفكر في طريقة أستطيع أن أسهم بها في إنقاذها من كل هذا الشقاء، نظرت إليها وهي تقرأ كتابها وتنفث سحرها في صمت وكبرياء، فازددت لها حباً وتمنيت لو كانت حقاً ملكة وهذه غرفة نومها، وأنا عشيقها السري الذي يزورها في ليالي الشتاء ويحتوي برفق جسمها الملكي العامر بأشهى الموائد والغلال، يتجول عبر حدائقه المزهرة ويصعد إلى شرفاته العالية ويقطف ما شاء له الهوى من تفاحة وأعنابه ورمانه ويشرب من خمرته الملكية

المعتقة، وفي زهو امتلاكي لذلك الجسم الذي تجري في عروقه الدماء الزرقاء برقت في ذهني فكرة، لماذا لا تقدم عنه بلاغاً إلى سلطات الأمن؟ هذا ما يجب أن تفعله فوراً، وجدت في نفسي حماساً عظيما لهذه الفكرة، بهذه الوسيلة وحدها يمكن أن تنجو من قبضته وينتهي عذاب السنين التي قضتها في صحبته وسيرتمي هو خلف القضبان ولن يخرج من ظلمات السجن إلا شيخاً هرماً، لا تفكري ماذا سيحدث بعد ذلك، ستجدينني قد جئت مسرعاً لأقف بجوارك، سأشقى وأتعذب من أجل إسعادك، سأكون يا مهجة قلبي خادما مطيعاً في محرابك، سأعرف كيف أعيد لهذا الجمال اعتباره وسأمنحك حباً لم يمنحه رجل لامرأة من قبل، كنت أنظر إليها فرحاً بأنه قد حان الوقت لإنقاذها، ولكن لأمر ما وجدتها تطرح الكتاب الذي بين يديها فوق الأرض وتهب واقفة والغضب يأكل جبينها وقد غمر وجهها أسى غريب كأنها رأت أكبر المناظر هولاً ورعباً، وتتقدم في خطي سريعة نحوي، نهضت من مكاني واقفاً أنظر إليها مندهشاً فرأيت يدها ترتفع وتهبط في عنف على وجهي كأنني ارتكبت في حقها أكثر الجرائم قبحاً.

- أيها النذل.

فأجأني الموقف فلم أدر ماذا أفعل، إنني لم أفتح فمي بكلمة واحدة، ولم أكن قريباً من مجلسها إلى الحد الذي يسمح بتفسير حركة قمت بها تفسيراً خاطئاً، حاولت أن أقول شيئاً، ولكنني سمعتها تصرخ في وجهي باكية.

ما شأنك أنت بي حتى تأتي بهذه الخيالات المريضة لإنقاذي. من أعطاك الحق في أن تتدخل في شؤوني. أو تفكر بالنيابة عني، إنها حياتي وأنا حرة فيما أفعله بنفسي.

تسمرت في مكاني يغمرني الذهول والذعر، تحولت إلى قالب من الطوب أو الخشب غير قادر على الإدراك أو الفعل أو التفكير أو السمع أو البصر أو الكلام، لا أدري كم مضى من الوقت وأنا على هذه الحالة وعندما بدأت أخشابي تعود بشراً من جديد أحسست بالأرض تهتز بقوة تحت قدمي، أدركت أنه القطار يشد فرامله وقد وصل بنا إلى المحطة الأخيرة، جاء أحد العمال يفتح المقصورة ويأمرنا باستعداد لمغادرة القطار، رآني أقف مذهولاً ورآها تجلس باكية فنظر نحوي متأملاً ثم التفت يسألها عما حدث، لم تقل له شيئاً،

أخذت حقيبتها وخرجت مسرعة، ظن عامل القطار أنني صاحبها فقال مبتسماً:

لا تحمل هماً، إن هذا يحدث بين كل العشاق.

من خلال الشباك رأيته واقفاً على رصيف المحطة، كان رجلاً عملاقاً في حوالي الخمسين من عمره، برأس مفلطحة خالية من الشعر، ووجه قبيح مليء بالنتوءات يضع فوق إحدى عينيه عصابة، وينظر بعينه الأخرى في ترقب إلى الهابطين من القطار...

المرأة والكلب

قررت في تلك اللحظة أن كل هؤلاء النـاس الـذين يمتلئ بهم هذا الميدان الكبير، ويتزاحمون داخل المتاجر التي انتصبت عمارات شاهقة على جوانبه، أو يقفون أمام نوافذها يتأملون البضائع، أو يرتادون دكاكين المأكولات الخفيفة التي تناثرت هنا وهناك. ويتناولون طعاماً سريعاً بائساً ويعـودن إلى مواصلة السير، كل هؤلاء إنما اهم بشر طيبون، كلهـم يحبون الخير ويسعون جميعاً إلى كسب لقمة شريفة، قـررت أنه ليس بينهم لص أو قاتل أو محتال، ليس بينهم أعضاء في عصابات للنهب أو الاغتيال، حتى لو كان بينهم من ارتكـب جرماً فإنني علي ثقة من أنه فعل ذلك منذ أمد بعيد، وفعلـه في لحظة طيش أو تهور دونما وعي أو تدبر، وأنه الآن ندم علي ذلك السلوك، مصمم علي أن يقضي بقية عمره كريمـاً شريفاً لا يؤذي أحداً، وأنني الآن ولأمر ما، أحس برباط من الود يصلني بهم جميعاً، وأحس بأنني أعرفهم فـرداً فـرداً، وأنني قادر علي أن أذهب لأي واحد منهم وأناديه باسمه كأننا أبناء حي واحد، ولأن الوقت لا يتسع لأن أذهب إليهم جميعاً

أذكرهم بالعلاقة الحميمة التي ربطتني بهم ذات يوم، فقد قررت في تلك اللحظة أن أنتقي من بينهم شخصاً، رجلاً كان أو امرأة، ليكون صديقي لما تبقي من هذا اليوم، فهو يومي الأول في هذه المدينة التي أزورها سائحاً. ارتحت لوجه امرأة تقدم بها العمر، تقف بمحاذاة متجر للملابس، ترتدي معطفا برغم اعتدال الطقس، وتحمل في يدها سلة مليئة بالخضار. سأبدأ بأن أسألها عن عنوان المكتبة العامة، فهو سؤال يوحي بالثقة ويجعلك تكبر في أعين هؤلاء الناس وتحظى على الفور بإعجابهم، فها هو من بين كل هؤلاء البشر الذين يسعون إلى الرزق وقضاء المصالح المادية ويفكرون في الألبسة والأطعمة والمتع الرخيصة من لا يزال يلبي نداء العقل ويبحث عن أماكن العلم والمعرفة، ليكن هذا مدخلاً مناسباً للحديث مع هذه السيدة الفاضلة التي لا تزال برغم تقدم السن تحتفظ بمسحة من جمال هادئ، والتي تعيل أربعة أطفال بعد أن أصيب زوجها بمرض الإدمان على الخمور ولم يعد صالحاً للعمل. هكذا منحتها من فوري هدفاً نبيلاً في الحياة ولكن فضولي لمعرفة المزيد عن حياتها قد انطفأ الآن بعد أن صنعت لها هذه القصة، سأتمهل قليلاً في

اختياري، وللحقيقة، فإن الوقت ليس مناسـباً للـدخول فـي دردشات مع المتقدمين في السن، إن الحديث مع العجـائز لا يحلو إلا بجوار المدافئ فـي الفنـادق الرخيصـة وحانـات الشوارع الخلفية عندما يأتي نهارات الشتاء الباردة، أما الآن فإن هذا الطقس البديع، وهذه الأنغام المفعمة بـأرقي أنـواع العطور، وهذا الهدير الذي يتصاعد من قلب الميـدان إلـى قباب السماء، وهذه اللافتات والألوان والأضـواء، جميعهـا توقظ في القلب رغبة لمعانقة الحياة في دورتهـا المتجـددة الخضراء، وقد تمثلت في وجوه تمتلئ نضارة وبهاء، ولذاك، فإنني سأدخل الآن واحداً من هذه المتـاجر الكبيـرة، لـيكن أكثرها بذخاً وإثارة وأجملها ديكوراً، وأبدأ حديثاً مع إحـدى البائعات، سأختار أكثرهن فتنة وجمالاً وأذهب إليها، حتى لو كانت تبيع معاطف الفراء، فسأدعي أن لي حبيبة في طولهـا ومقاسها، وأطلب منها أن تقيس إلى معطفاً كي أشتريه، ثـم أدفع ثم المعطف وأتركه لها، ,لن تراني بعد ذلك أبـداً، وإن كانت تبيع خواتم فسأدعي أن أصـابع مـن أحبهـا تماثـل أصابعها نعومة ورقة، وإن كان ما تبيعه عطوراً فسأسألها أن تختار لي أرقي هذه العطور وأغلاها ثمناً سأشتري الخاتم أو

العطر أو معطف الفراء، وأتركه لها وأمضي، لا يهم أن كان ذلك سيكلفني كل ما معي من شيكات سياحية، فسأقطع هـذه الإجازات وأعود راضياً، يكفي أن أترك لديها انطباعاً بما في هذا السلوك من نبل يضاهي نبل فارس من عصور الأساطير والزنابق السوداء، أريد أن أترك هذا المساء انطباعاً جلـيلاً وعظيماً عني لدي إحدى النساء الجميلات. عدلت عن الذهاب إلى البائعات وقطعت الشارع إلى الرصـيف المقابـل، فقـد رأيت امرأة في مقتبل العمر، سيدة، كأن واضحاً أنها موظفة بإحدى الوزارات، أو لعلها مدرسة أو باحثة بأحد المختبرات، في وجهها صرامة وجدية، وفي ملامحها نبل وأرستقراطية، وتمضي بخطي يبدو واضحا أنها تمضي إلى هـدف محـدد مرسوم، أعجبت باستدارة فمها، فاخترت أن أمنحها صداقتي هذا المساء.

أدركت منذ البداية أنني قد اخترت هدفاً صعباً لاختبار قدراتي وأن علي الآن أن أعتني اعتناء خاصاً باختيار مدخل مناسب للحديث مع هذه المرأة التي يبدو أن لديها وقتاً أو صدراً يتسعان لعقد الصداقات العاجلة على قارعة الطريق.

لن ينفع مع هذه السيدة السؤال عن المكتبات، ستشير برأسها نحو الاتجاه المعاكس، وتمضي في طريقها، أعرف هذا النوع من السيدات. إنها لا ترحب بعشاق الثرثرة في مثل هذا الوقت من النهار، إن أفضل الأوقات لعقد صداقة معها هو ذلك الوقت عندما تأخذ كلبها في نزهة إلى إحدى الحدائق العامة، إن سيدة لها هذا المظهر الذي يوحي بانتمائها إلى الطبقة الراقية، وتكتسي ملامحها هذه الجدية لا بد أن يكون لها كلب تحتفظ به في أحد أركان البيت. ليتها جاءت به معها، إذ لصارت مهمتي أسهل ألف مرة مما هي عليه الآن، ولمضيت من فوري أخاطب الكلب وأثني على فطنته وجماله كمدخل لعقد صداقة حميمة معها، ولكن ما الذي يهم، لماذا لا أخترع لها الآن كلباً وأخاطبه، وأبدأ في إنشاء هذه العلاقة التي ستكون – بلا شك – مصدر سعادة لنا نحن الاثنين.

كنت في تلك اللحظة قد تجاوزتها وصرت أسير أمامها، تمهلت في خطاي حتى رأيتها تمشي بمحاذاتي، أدرت رأسي نحوها وأنا أدعي الاندهاش.

يا إلهي... ما أجمل هذا الكلب.

كنت في الحقيقة أنظر إلى فمها.

رأيتها تلتفت شمالاً ويميناً ظناً منها أنني أخاطب أحداً غيرها، وعندما لم تجد أحداً نظرت نحوي في استغراب ومضت مسرعة الخطى، جاريتها في سرعتها وانحدرت بنظراتي مع جسمها المكتنز الجميل حتى وصلت إلى ساقيها.

- ماذا تسمين هذا الكلب الرائع؟

ازدادت ملامحها صرامة وتجهماً، نظرت إلى الأرض فلم تجد كلباً...

عن أي كلب تتحدث؟
ها قد أرغمتها الآن على الكلام.

هذا الذي تقودينه الآن يا سيدتي، إنني في الحق أحب هذا النوع من الكلاب، أحبه كثيراً، إن لدي نفوراً طبيعياً من تلك الكلاب الكبيرة الحجم. وبصراحة أكثر، فقد عضني أحدها عندما كنت طفلاً وما زالت آثار أنيابه في ساقي حتى الآن، ولكنني على ثقة من أن هذا النوع الصغير الجميل، ذا

الشعر الناعم الغزير لا يؤذي أحداً على الإطلاق، خاصة هذه التي تحمل ملامح صينية... كم أحبها.

لم أجد منها نفوراً، بل أنني ألمح الآن اختلاجه علي شفتيها كأنها تقاوم رغبة في الابتسام، لكنها ما زالت تمشي مسرعة الخطى، يكاد مشينا أن يصبح هرولة، ليتها تبطئ قليلاً في سيرها حتى أستطيع أنحني لالتقط هذا الكلب من فوق الأرض وآخذه إلى صدري وأمرر أصابعي من خلال الشعر الغزير الناعم الوهمي الذي يتدلى فوق عينيه، وأظهر لها مدى حبي له، وبرغم أنها لم تبطئ السير فقد أخذت الكلب إلى صدري، فعلت ذلك بسرعة ومهارة زادتني إعجاباً بنفسي.

ياله من كلب أليف، طيب المعشر، لا بد أنك تعتنين بتربيته عناية عظمى، وإلا ما كان له أن يتمتع بكل هذه الأخلاق العالية.

صرت أرفع الشعر الذي يتهدل فوق عينيه وأضعه على جانبي وجه، لقد ارتاح الكلب إلى حديثي كأنني صديقه منذ زمن بعيد، انشرحت أساريره وبدا سعيداً بهذه المداعبة،

انتقلت إليها العدوى، فانبسطت ملامح وجهها في حين ذهبت أنا أخاطب الكلب.

يالك من ولد يحب الشقاوة والعفرتة، وإلا ما تركت شعرك ينسدل علي جبينك وعينيك مثل نجوم الأفلام الغرامية، لا شك أن لك سحرك ونفوذك علي الجميلات من بنات الكلاب، إنني أعرف طبيعتك الماكرة.

رأيتها تنظر نحوي باهتمام، فوجدت أن الوقت مناسب لكي أنتقل إليها بالحديث.

لم تذكري لي، ماذا تسمين هذا العاشق الوسيم؟ لعل منظر هؤلاء الأطفال الذين يعبرون الطريق الآن وهم يتضاحكون ويتقافزون في مرح هو الذي أغراها باللعب، فوجدتها تقول بسرعة – كونفشيوس.

ها قد بدأنا اللعب الآن.

تأسفت لأنها تمنح اسم حكيم الصين العظيم لهذا الكلب الصغير، الضئيل الحجم، الذي لا قيمة له، ولا عقل، ولا ذكاء، بل لا وجود له أصلاً. أعدت كونفشيوس إلى مكانه

فوق الأرض، إنها سيدة علي جانب من الذكاء وإلا كانت اختارت له اسماً صينياً آخر أكثر ذكراً في نشرات التليفزيون.

كان كونفشيوس يهز ذيله في سعادة.

إنه اسم جميل.

قلت ذلك متملقاً، وقررت أنه قد حان الوقت لأن أذهب باللعبة خطوة أخرى إلى الأمام، قبل أن يتنكر لي هذا الكلب اللعين.

ما أحوجه إلى التنزه في إحدى الحدائق القريبة بدلاً من المشي في هذا الميدان المزدحم الكبير، حرام أن ينتهي هذا النهار الجميل دون أن يستمتع فيه بالتمرغ فوق الأعشاب.. دعيه عنك.

أخذت منها الحبل الذي تقود به الكلب، وسرت باتجاه الحديقة دون أن أنتظر منها جواباً، سوف لن أغضب لو وجدتها قد ذهبت في طريقها ولم تأت معي، سأعتبر أن اللعبة قد انتهت، وسوف لن يؤثر ذلك في حبي للكون الكبير

أو صداقتي لهؤلاء البشر الذين يضمهم هذا الميدان. ولدهشتي الشديدة وجدتها قد جاءت خلفي، لم تتردد أو تتوقف لحظة عن التفكير، أو تتمنع قليلاً كعادة النساء في مثل هذه المواقف، سرت أقود الكلاب بخطى كأنها الرقص، لقد كنت أرقص فعلاً، قررت أنني الآن في حالة حب مع هذه الانثى الرائعة، وأنني سأخاص لها الحب، وعلى استعداد لأن أرتمي فوق الأرض وأقبل قدميها الصغيرتين دون أن أرى في ذلك مذلة أو إهانة، ازداد الكون بهجة وبهاء، والبشر الذين يملئون الطرقات ازدادوا وسامة وجمالاً ونبلاً،، وبدت الكلاب الصينية أعظم أنوع الكلاب في الدنيا، وصلنا الحديقة في غمضة عين، وأدركت أن الأشجار في هذه الحدائق كائنات عريقة لها مهابة وجلال، إنها طويلة، سامقة كثيفة الأوراق، فذهبت أقدم لها التحية في خشوع ورهبة، ورأيت الأعشاب خضراء ندية ناعمة تغطي وجه الأرض فأدركت أن للأرض جلال الأمهات، ورفعت رأسي إلى السحب الربيعية الخفيفة التي تعبر حقول السماء الآن، فأدركت أن ا يراني ويباركني، فلوحت له بيدي مبتسماً، وكان ذهني أكثر نشاطاً ومزاجي أكثر صفاء، قابلتني قرنفلة حمراء وبرغم اللافتات

التي تمنع ذلك فقد قطفتها وقدمتها إلى السيدة التي معي عربون محبة ووفاء، جلسنا سويا فوق بساط العشب، كانت الحديقة تضم عدداً آخر من الناس الذين جاءوا يتنزهون بكلابهم. خلعت عن عنق كونفشيوس الحبل، ودعوته لأن يذهب ويجري فوق العشب حراً طليقاً، شاكراً له صنيعه في تقديمي إلى هذه السيدة، إذ لولاه ما كنت لأطمع في كلمة منها، ذهب الكلاب يركض فوق الأرض الخضراء، فكرت أن أسألها عن اسمها وعن العمل الذي تؤديه وعن المكان الذي كانت تمضي إليه مسرعة قبل أن ألتقي بها، ولكنني عدلت عن ذلك، وجدت أنها أسئلة لا معنى لها، وخروج عن دائرة هذه اللحظة بسحرها وجمالها، ولأن الأسماء مجرد رموز فقد قررت أن أمنحها اسماً أناديها به، اسماً أختاره أنا الآن لا ذلك الذي اختارته لها إحدى عجائز أو شيوخ عائلتها، ليكن اسماً جميلاً مدهشاً معبراً عن روح هذه اللحظة، ولأمنح نفسي دقيقة أو دقيقتين للتفكير "فينوس" هذا هو منذ الآن اسمها وما أنا إلا ناسك في معبد جمالها، ضحكت عندما قلت لها ذلك، وذهبت تتابع بأنظارها الكلاب، أردت إن أجاريها في اهتمامها بالكلاب فسألتها:

-كم عمره؟

-ماذا تقول أنت؟

ليس لدي خبرة بالكلاب ولا بأعمارها ولا بالمدى الذي يمكن أن تعيش، بل إنني في الحقيقة لا أميل إلى الكلاب، ولا أرى في هذه الصداقات التي يعقدها الناس مع الكلاب إلا تعويضاً عن الخيبة والفشل اللذين تمني بهما الصداقات الحقيقة التي يمكن أن تعقد بين البشر، وأن هناك خللاً في حياة كل هؤلاء الناس الذين يأتون بكلابهم إلى الحديقة، إنهم وحيدون وحدة قاسية، وإنني في الحقيقة أرثي لهم.

- لعل عمره خمس سنوات.

- إن عمره عام واحد.

-ما أشطره من كلب، لا أذكر أنني كنت أستطيع أن أجري مثله عندما كان عمري عاماً واحداً.

كان كونفشيوس قد رأى كرة تهبط فوق العشب فذهب خلفها وصار يدفعها برأسه حتى جاء بها إلينا.

لا أعتقد أن بيليه كان يستطيع أن يسرق الكرة ويجري بها بمثل هذه المهارات عندما كان عمره عاماً. إن في الكلاب شيئاً يفوق عقول البشر.

كنت أردت أن أسألها إذا كانت الكلاب تستطيع أن تمارس الجنس في مثل هذه السن فقد رأيته يمضي ليختار من بين كلاب الحديقة واحدة يجعلها أنثاه، يطارحها الغرام ويحاول بلا حرج أن يمارس معها الجنس، كنت أردت أن أقول لها أن الإنسان يحتاج إلى أعمار عشرين كلباً مثل كونفشيوس قبل أن يكتشف أن الأطفال لا يهبطون في سلال من السماء، ولكنني بدلاً من ذلك قررت أن أستفيد من خبرة الكلاب في معالجة مواضيع الحب، التصقت بها ووضعت ذراعي حول عنقها، وانحنيت لكي ألثم شفتيها لكن فينوس منعتني بلطف من الوصول إلى فمها، ومضت تروي القصص الغريبة التي تعرفها عن طبائع الكلاب ووفائها وذكائها حتى ظننت أن للعمل الذي تحترفه صلة بتربية الكلاب، وكنت أريد أن أسألها عن ذلك، ولكن الدماء التي صارت تعزف نشيداً مرحاً في عروقي جعلتني أمل حديث الكلاب، كان كونفشيوس قد اشتبك في عراك مع كلب آخر

حول الانثى، انتفضت فينوس واقفة وذهبت إليه تسأله في لهجة حازمة أن يتأدب ويكف عن العراك، بدأت في الحقيقة أكره هذا الكلب الذي اخترعته في لحظة مزاح فإذا به يعكر الآن صفو مزاجي، وبدأت أشعر بسحب من الغيظ تتجمع الآن في صدري، عادت فينوس لتجلس فوق العشب بجواري، لكن عروقي توقفت عن عزف ذلك النشيد، ولا أدري لماذا أحسست في تلك اللحظة أن هذا الوجه الذي بدأ جميلاً نبيلاً وقد تألق دونما أصباغ أو مساحيق وهذا الفستان بأناقته وجمال الشموس والبحار التي ارتسمت فوقه، وهذا الشعر الذي بدا وكان خمس وصيفات قد اشتركن في تصفيفه وتزيينه ووضعه بعناية خاف جيدها حتى جاء يمنح وجهها وعنقها هذه المسحة التي لا تعرفها إلا التماثيل الهة الجمال الإغريقية، كل هذا بدا لي في تلك اللحظة أنه ليس إلا مظهراً خادعاً لاحدى بائعات الهوى، تفننت في هذا التمويه وهذا التنكر لكي تستطيع أن تمارس مهنتها بعيداً عن مضايقات الشرطة، وإنه لن يمضي وقت طويل حتى تسألني عن الثمن، حاولت أن أطرد هذه الفكرة من رأسي، فإن في ذلك ظلماً لهذه السيدة، الرقيقة الجميلة التي أعجبتها دعابتي فجاءت

معي إلى الحديثة، إن كل شيء في سلوكها وحديثها يوحي بأنها سيدة من إحدى البيوتات الراقية، ذات علم وثقافة، بل إن في عائلتها من كان بالتأكيد عالماً كبيراً أو حاكماً أو وزيراً ذا شأن أو بطلاً من أبطال الحروب، إنني علي ثقة من أنها من عائلة ذات مجد قديم ولكن هذه الفكرة جاءت فسيطرت علي عقلي وافسدت مزاجي، وجعلت ذلك الإحساس بالفخر الذي جاء نتيجة لبراعتي في التعرف إليها وعقد هذه الصداقة السريعة معها يتبخر الآن في الهواء.

وقررت بيني وبين نفسي أن أسحب منها الاسم الذي منحته لها، وأن أطردها من المعبد الذي أقمته من أجلها، وأردت أن أكون البادئ باستفزازها قبل أن تفاجئني بالجملة المعتادة عن السعر.

إنني في الحقيقة لا أحب الكلاب.

توقفت هي عن مواصلة الكلام، لقد أدركت مدى ما في لهجتي من روح عدوانية، لم يكن هناك مبرر لأن أنهي اللعبة بهذا الأسلوب الذي يخلو من أي ذوق... ولكنني واصلت.

- بل أنني في الحقيقة أمقتها..

رأيتها تنظر نحوي في استغراب كأنها تسألني كيف سمحت لنفسي أن أخترع لها كلباً مليئاً بالحيوية والنشاط.

لم يعد يهمني الآن إذا ما رأت في سلوكي شيئاً لا ترتضيه طبيعة سيدات الطبقة الراقية، بل لعل ما يستفزني فيها هو أنها فعلاً إحدى سيدات تلك الطبقة.

ذهبت مرة إلى مطعم فأضحكني أن رأيتهم يضعون لحم الكلاب في قائمة المشويات.

ضحكت في شماتة، لا أعرف في الحقيقة مطعماً يقدم لحم الكلاب ضمن وجباته، وإنما هي كذبة قلتها زيادة في التنكيل بها.

كان كونفشيوس قد ذهب بعيداً وعاد يركل برأسه كرة أخرى، ويرمي بها أمامي تودداً، ويحوم حولي مسروراً، كأنه يريد أن يغني، لم يجد مني قبولاً، إدرك بغريزته أنني صرت أمقته، فتوقف من فوره عن اللعب، وأخذ ينظر نحوي في حذر وينصب أذنيه في اندهاش ويصدر همهمة غامضة

كأنها تعبر عن استغرابه لهذا التحول الذي يطرأ علي طبيعة البشر..

أخذت هي الكرة من فوق الأرض ورمت بها بعيداً إلى أصحابها..

أدركت أن اللعبة قد وصلت الآن إلى نهايتها، فأخذت من جيبي مسدساً وهمياً وصوبته نحو رأس الكلاب، صـاحت المرأة بي كي لا أقتله، توسلت وبكت، ولكنني لم أكـن فـي حالة نفسية تسمح بإظهار أي ضعف نحـو المـرأة ونحـو الكلاب. شددت بعنف على الزناد فلعلع صوت الرصاص في الهواء، فزعت الطيور التي كانت تجلس في حلقات فوق قمم الأشجار وملئت الدنيا ضجيجاً بأصواتها المذعورة، وهرولت الكلاب التي كانت تلعب فوق أرض الحديقـة فـي مختلـف الاتجاهات، وارتمي كونفشيوس مجندلاً في دمه فوق العشب دونما حراك.. تركت المرأة وقد تجمدت في مكانها رعبـاً، وسرت أضع يدي في جيبي بنطالي وأصـفر لحنـاً مرحـاً وعندما نظرت إلى السماء رأيت كلباً عملاقا مصنوعاً مـن السحب، بدأ الكلاب ينظر في غليظ نحوي ويطاردني بنباحـه كأنه يريد بي شرا..

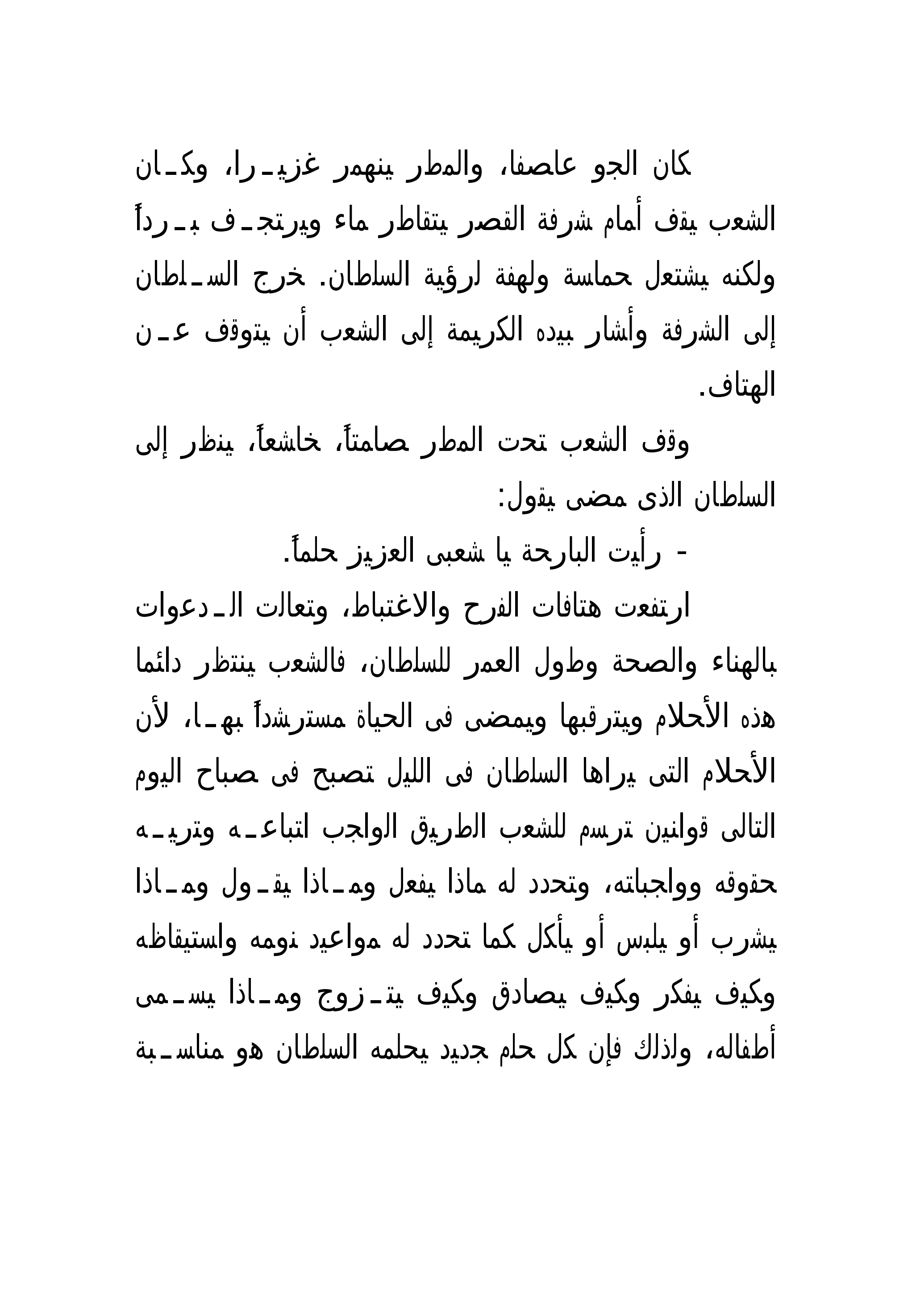
المطر وأحلام السلاطين

حكاية عربية قديمة يحتكر الملوك والرؤساء العرب حق نشرها وطباعتها وروايتها وإعادة كتابتها وإنتاجها يوما وراء يوم وعاما وراء عام، ولا يبيحون حق نقلها واقتباسها إلا لأتباعهم من رؤساء الشرطة وحكام الاقاليم والولايـات.

كان يا ما كان، فى قديم الزمان، سلطان من سلاطين بنى قحطان، يحب الصمت ويكره الكلام (حتى صار النـاس يتكلمون بالإشارة ولا يستخدمون ألسنتهم إلا فـى الهتـاف)، وجعل شعار دولته الأمن قبل الطعام، (ولذلك اختفت أرغفـة الخبز من السوق بينما بلغت قوات الأمن رقما قياسيا حتـى أصبح لكل مواطن شرطيان).

وذات صباح ممطر استيقظ السلطان القحطانى مـن نومه منزعجاً. كان قد سمع رعداً كثيراً، ورأى حلما مفزعا، فأرسل على عجل يطلب من شعبه الحضور إلـى القصـر والمثول أمامه فى التو والحين.

جاء الشعب مهرولا هاتفاً يعبر عـن حبـه العظـيم للسلطان.



كان الجو عاصفا، والمطر ينهمر غزيرا، وكان الشعب يقف أمام شرفة القصر يتقاطر ماء ويرتجف برداً ولكنه يشتعل حماسة ولهفة لرؤية السلطان. خرج السلطان إلى الشرفة وأشار بيده الكريمة إلى الشعب أن يتوقف عن الهتاف.

وقف الشعب تحت المطر صامتاً، خاشعاً، ينظر إلى السلطان الذى مضى يقول:

- رأيت البارحة يا شعبى العزيز حلماً.

ارتفعت هتافات الفرح والاغتباط، وتعالت الدعوات بالهناء والصحة وطول العمر للسلطان، فالشعب ينتظر دائما هذه الأحلام ويترقبها ويمضى فى الحياة مسترشداً بها، لأن الأحلام التى يراها السلطان فى الليل تصبح فى صباح اليوم التالى قوانين ترسم للشعب الطريق الواجب اتباعه وتريه حقوقه وواجباته، وتحدد له ماذا يفعل وماذا يقول وماذا يشرب أو يلبس أو يأكل كما تحدد له مواعيد نومه واستيقاظه وكيف يفكر وكيف يصادق وكيف يتزوج وماذا يسمى أطفاله، ولذلك فإن كل حلم جديد يحلمه السلطان هو مناسبة

للفرح والابتهاج وتأليف الهتافات الجديدة تمجيـدا للسـلطان وأحلامه.

ومرة أخرى أشار السلطان بيده الكريمة إلى الشعب أن يتوقف عن الهتاف قائلا:

- رأيت يا شعبى العزيز فى المنام أنى أذبحك..

قالها السلطان، حزينا متألماً، تخنقه العبرات، قالهـا بصوت يلونه الأسى والشجن، فهو يحب شعبه حبا شـديدا، أكثر من حبه لقطته السيامية " ميشيا "، وأكثر من حبه للكلب الذى تلقاه هدية من ملك الصقالبة وصار قريبا إلى قلبه حتى خصص له ساعة فى الإذاعة كل يوم لا يذاع فيها إلا نباحـه العذب الجميل، بل هو يحب شعبه أكثر من حبه لفطائر جراد البحر التى تأتيه مخلوطة بتوابل الهند لكى يعالج بها الضعف الطارئ الذى أصابه أخيراً، نعم، إنه يحب شعبه أكثـر مـن هذه الأشياء، فهى كائنات وأطعمة يستطيع فراقهـا يومـا أو يومين، أما شعبه الحبيب فهو لا يستطيع أن يفترق عنـه أو يتخلى عن حبه وحكمه يوما واحداً.

ارتفعت هتافات الشعب الذى وقف تحت المطر يتلقى آخر أحلام السلطان.

- نموت نموت ويحيا السلطان.

- نحن فداء السلطان.

ابتهج السلطان عندما رأى الشعب صابرا فى مواجهة هذا الامتحان العسير ممتثلا لما تقوله الأحـلام، واسـتأنف حديثه قائلا:

- تعلم يا شعبى العزيز مدى محبتـى لـك، وحرصى على حياتك ورغبتى فى البقاء معك إلـى الأبـد. ولكن للأحلام منطقها وحكمتها فهى لا تنطق عن الهوى ولا تقول إلا ما تريده القوى الخفية المجهولة التى لا سبيل إلـى فهمها وما على البشر الفانين إلا تنفيذ أوامرها، وليس غريبا يا شعبى العزيز أن يتوافق هذا الحلم مع مجيء الأمطار التى تبشر بمواسم الخصب والخير والازدهار، ومعنى ذلك أنه لا يأس مع الموت وأن فى موتك أيها الغالى والحبيب إلى قلبي، حياة لهذه الأرض وإنقاذًا لها من الجفاف والقحط.

هبط السلطان القحطانى بعد ذلك من شرفته وركـب محفته التى يحملها العبيد ومضى يقود شعبه إلى منطقة الذبح تحت الجبل.

وبعينين تمتلئان بالدموع أخرج السلطان سكينه وأمر عبيده الذين أمسكوا بالشعب وألقـوا بـه فـوق الأرض أن يترفقوا بالشعب فى لحظاته الأخيرة وأن يضعوه فى مواجهة القبلة لكى يكون الذبح متفقا مع القواعد والأصول الشرعية.

رفع الشعب بصره إلى السماء، وانتظـر أن تحـدث المعجزة، وترسل السماء كبشا يفتديه مكافأة له على صـبره وامتثاله لما تقوله أحلام السلطان، ولكن السماء أقفلت وجهها وامتلأت بالسحب السوداء. لقد توقفت منذ زمن طويل عـن إرسال الكباش إلى الارض، وافتداء البشر الـذين يسـلمون رقابهم للسلاطين.

مد الشعب عنقه.

ومد السلطان سكينه ليذبح شعبه وهو يلهج بالـدعاء ويذكر اسم ا بصوت يلونه الحزن والانفعال الشديد.

فى حين كان المطر ينهمر بغزارة مبشـراً بمواسـم الخصب والازدهار.

الولد

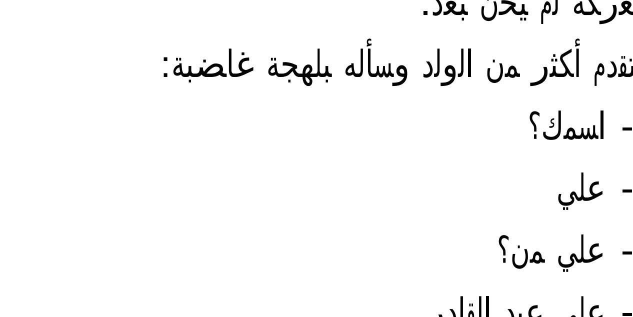
لم تكن مهمة الضابط مسعود مهمة شاقة. فقد رجع إلى قريته فى الجنوب بعد أن غاب عنها سنوات طويلة من أجل تدريب أهلها على حمل السلاح. كان كثير من الرجال يعرفون استعمال البندقية، بل إن أغلبهم جاء يحمل بندقيته، وقد زودته قيادة المجاهدين بمجموعة أخرى من البنادق لتوزيعها على الذين لا يملكون بنادقَ.

لقد أقام سنوات طويلة بمدينة طرابلس، وتلقى تدريبا عسكريا على أيدى الضباط الأتراك قبل انسحابهم من ليبيا، وشارك فى معركة الهاني. ولقد استأذن قيادة المجاهدين لكى يعود إلى قريته ويؤدى مهمته فى تدريب أهلها على فنون الحرب والقتال، فالطليان بدءوا الآن حملتهم باتجاه الجنوب، ولا بد أن يكون أهل قريته على استعداد، فصار يجمعهم كل يوم بعد صلاة الفجر لإعلامهم بمسار المعركة وقوة العدو وأساليب المواجهة، ثم يبدأ تدريبا عمليا على استعمال السلاح والتصويب والرماية والفنون العسكرية. حقا إن عددا من المجاهدين قد سافر باتجاه الشمال للمشاركة فى المعارك التى

دارت على الشواطئ الليبية، وسقط منهم الشهداء، ولكنهم الآن جميعا يجب أن يشاركوا فى الجهاد.

مع بواكير الصباح جاء الرجال لملاقاة الضابط مسعود فى هذا الركن القصى من القرية، تركوا الحقول ورعى الشياه للنساء والأطفال، وجاءوا جميعهم للتدريب. لقد تعود الضابط مسعود أن يجد بينهم عددا جديدا من الرجال يأتون إلى التدريب لأول مرة لأنهم كانوا على سفر أو لأنهم يعيشون فى المناطق الصحراوية البعيدة. تلا قائمة الناس الذين سبق تسجيلهم فوجدهم جميعا قد حضروا، ثم سأل إذا ما كان هناك من الموجودين يحضر لاأل مرة. تقدم أربعة رجال، ابتهج الضابط مسعود عندما وجدهم جميعا يحملون بنادقهم معهم، كانت غبشة الصباح تمنعه من أن يرى ملامحهم بوضوح. كان أحدهم قصير القامة بحيث بدت البندقية أشبارا فوق رأسه. تقدم منهم يتأملهم جيدا. كان الأمر مفاجأة له عندما وجد أن هذا الرجل الذى ظنه قصيرا لم يكن إلا ولدا صغيرا لا يتجاوز عمره عشر سنوات، اغتاظ الضابط مسعود غيظا شديدا، ما الذى يحدث هنا؟ من الذى جاء بهذا الولد الصغير؟ هل نفد الرجال حتى نبدأ بتقديم

الأطفال إلى المعركة؟ كانت الأسئلة حائرة تدور فى ذهنه، قائلا فى نفسه يجب أن يذهب هذا الولد ليتسلى برعى الجديان واللعب مع أقرانه فى الحقول، فما زال وقت ذهابه إلى المعركة لم يحن بعد.



تقدم أكثر من الولد وسأله بلهجة غاضبة:

- اسمك؟

- علي

- علي من؟

- علي عبد القادر

تطوع أحد الحاضرين بالقول إنه ابن المزارع عبد القادر الذى تطوع للحرب فى معركة الهانى واستشهد هناك.

إذن فهو ابن ذلك المجاهد الجسور، لقد عرف والده أثناء معركة الهاني، كان محاربا عظيما، رفض أن ينسحب من موقعه وبقى يدافع عنه حتى سقط شهيدا فى الميدان. إذن فهذا هو ابن رفيقه فى السلاح، تأمل الولد جيدا، إن شيئا من والده مازال حيا فيه، إن له ذات العينين وذات النظرة التى تعطى معانى العزم والتصميم.

إن من حق الشهيد علينا أن نصون عائلته ونحمى أولاده ونرعاهم لا أن نأتى بابنه بعد موته وندفع به إلى المعركة، هكذا كان الضابط مسعود يقول فى نفسه، نظر إلى الرجال الذين أمامه غاضبا وسألهم قائلا:

- من جاء بعلي إلى هنا !

لم يتكلم منهم أحد. فأعاد السؤال

- هيا تكلموا من الذى جاء بهذا الولد إلى هنا؟

استمر الصمت إلى أن قال علي بلهجة ثابتة

- لقد جئت بنفسي !

لم يكترث الضابط مسعود لكلام علي، قال موجها كلامه إلى الرجال

- لابد أن واحداً منكم هو الذى قاده إلى هذا المكان؟

تقدم أحد الرجال قائلا

- نعم أيها الضابط، لقد حاولنا جميعا إقناعه بأن يترك فكرة الاشتراك فى المعركة، لكنه أصر، لقد احتفظت أمه ببندقية أبيه التى أحضرها رفاقه من معركة الهاني. وأرادت أن تقدمها اليوم هدية للمجاهدين. ولكنه أصر على أن يحمل

هو بندقية أبيه ويحارب بها الطليان. حاولت أمه أن تثنيه عن عزمه ولكن بلا فائدة.. فلم نجد جميعنا بدا من إحضاره معنا!

قال الضابط بلهجة حازمة

- يجب أن يعود إلى أمه الآن !

قال الولد محتجا

- لا.. لن أعود

قال الضابط:

- نعم، إننى أفهم دوافعك يا بني، ولكن لدينا ما يكفى من الرجال !

قال علي:

- ولكننى رجل !

أراد الضابط أن يشرح الأمر لعلي.

- إنك مازلت ولدا صغيراً. إن المعارك التى تواجهنا يا بنى لن تنتهى فى يوم أو يومين، إننا نعد أنفسنا لمعركة طويلة الأمد، ولسوف يأتى دورك لتحمل أنت السلاح، ولكن ليس الآن. إن مكانك بين أقرانك تلعب وتمرح وترعى الجديان، وسنتولى نحن المهمة. فهيا يا بنى أعطنى هذه البندقية إذا أردت، وعد الآن إلى أمك !

قال الولد فى عناد:

- سأبقى هنا ! سأبقى معكم !

قال الضابط مسعود بلهجة حانقة:

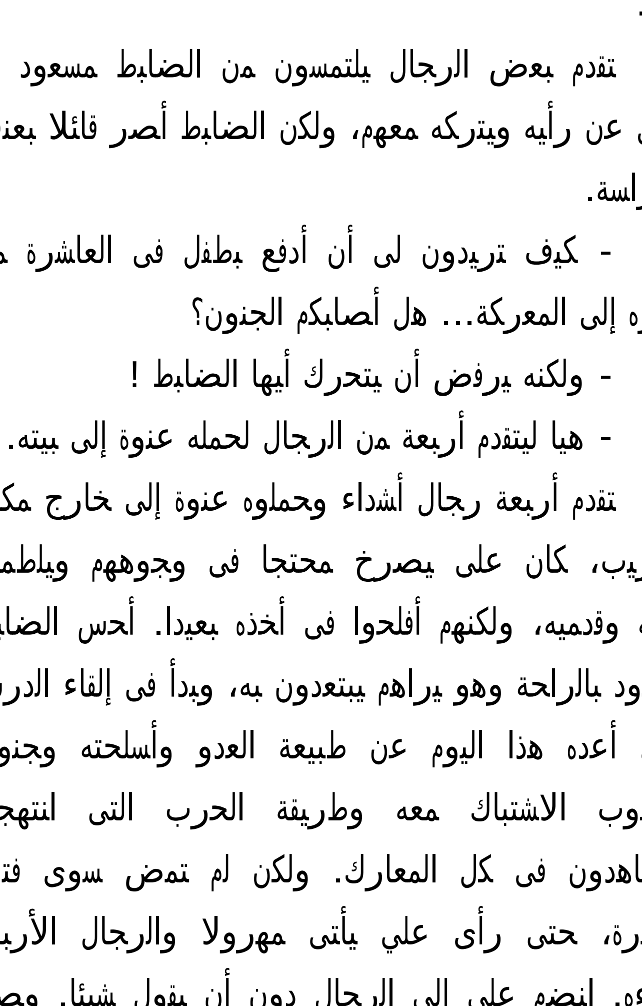
- يجب أن تعود إلى البيت

تقدم منه وأخذ البندقية بسرعة من فوق كتفه، وأشار إلى أحد الرجال بأن يأخذه ويرجع به إلى البيت...

حاول الرجل أن يسحبه من يده، ولكن على جلس فوق الأرض، ورفض أن يتحرك من مكانه !

- اعطنى بندقية أبي. لماذا لا أحارب مثلكم، وأقتل الذين قتلوا أبي !

كانت الدموع تهطل من عينيه بغزارة، أحس بالخجل لأنه يبكي، أخذ منديلا من جيبه وصار يجفف دموعه، إنه لا يبكى خوفا من المعركة، ولكنه يبكى إصرارا على الذهاب إلى المعركة، لقد أحس بنفسه رجلا وهو يضع البندقية فوق كتفه، أحس بنفسه قويا وقادرا على أن ينتقم من أولئك الأشرار الذين جاءوا يغتصبون الأرض ويقتلون أباه. لكنهم أخذوا منه البندقية ويريدونه أن يعود طفلا يلعب مع الأطفال، كيف يحلو له أن يلعب وهو يدرك أن الذين قتلوا أباه قادمون


إليه لقتله وقتل أهله، أحس بالمرارة تملأ حلقه، فبكى بحرقة وألم.

تقدم بعض الرجال يلتمسون من الضابط مسعود أن يعدل عن رأيه ويتركه معهم، ولكن الضابط أصر قائلا بعنف وشراسة.

- كيف تريدون لى أن أدفع بطفل فى العاشرة من عمره إلى المعركة... هل أصابكم الجنون؟

- ولكنه يرفض أن يتحرك أيها الضابط !

- هيا ليتقدم أربعة من الرجال لحمله عنوة إلى بيته.

تقدم أربعة رجال أشداء وحملوه عنوة إلى خارج مكان التدريب، كان على يصرخ محتجا فى وجوههم ويلطمهم بيديه وقدميه، ولكنهم أفلحوا فى أخذه بعيدا. أحس الضابط مسعود بالراحة وهو يراهم يبتعدون به، وبدأ فى إلقاء الدرس الذى أعده هذا اليوم عن طبيعة العدو وأسلحته وجنوده وأسلوب الاشتباك معه وطريقة الحرب التى انتهجها المجاهدون فى كل المعارك. ولكن لم تمض سوى فترة قصيرة، حتى رأى علي يأتى مهرولا والرجال الأربعة وراءه. انضم علي إلى الرجال دون أن يقول شيئا. وصل

الرجال الأربعة لاهثين، تقدم أحدهم يشرح الأمر للضابط مسعود الذى صار ينظر إليهم فى دهشة واستغراب.

- لقد ركبه عفريت أيها الضابط. فلا ندرى حتى رأيناه يدفعنا جميعا عنه، ويخلص نفسه من أيدينا وينطلق كالسهم عائدا إليكم.

حاول الضابط أن يأخذه باللين هذه المرة

- لماذا لا تريد أن تفهم يا علي.. إننا نريد مصلحتك !

- إن مصلحتى معكم. لا مصلحة لى بين النساء والأطفال. سأكمل ما بدأه أبي.. سأقضى على الطليان. أعطنى بندقيتي.

أحس الضابط مسعود بالفخر وهو يرى هذه الروح تشرق فى قلب ولد فى العاشرة من عمره. ولكنه تذكر عبد القادر رفيقه فى السلاح وهو يريد أن يجنب ابنه الصغير أهوال الحرب. قال بلهجة حانية:

- هيا ارجع يا ولدى إلى البيت.. إن أمك تنتظرك الآن.

قال علي فى إصرار

- لن أرجع.

إذن لن ينفع اللين مع هذا الولد العنيد، أمر الضابط الرجال بأن يوثقوه بالحبال وأن يأخذوه مقيدا إلى والدته. تقدم الرجال الأربعة يربطون يديه وقدميه ويعودون به إلى القرية، وقد تأكدوا أنه لن يفلت من أيديهم هذه المرة.

تفرغ بقية الرجال إلى تدريباتهم، وبعد برهة عاد الرجال الأربعة يشاركون فى التدريب بعد أن أوصلوا على إلى أمه، وسألوها أن تقفل عليه باب البيت جيدا. وانقضى النهار، وانتهى وقت التدريب دون أن يظهر أثر لعلي، لا بد أن أمه قد عرفت كيف تبقيه داخل أسوار البيت، ولا شك أنه أدرك الآن أن لا مكان له بين هؤلاء الرجال، وأن دوره فى المعركة لم يحن بعد، وأن عليه أن ينتظر حتى يصل سن الرشد.

فى فجر اليوم التالى انتظم جمع الرجال بجوار غابة النخيل قريبا من القرية، وما إن بدأ الضابط مسعود فى قراءة أسماء الحاضرين وتنظيمهم فى طابور الصباح حتى اكتشف أن على قد أفلح فى فك الحصار الذى ضربته عليه أمه داخل البيت بدليل أنه قد جاء متسللا خلف الرجال وها هو الآن يندس بينهم ويقف معهم فى طابور الصباح. نظر إليه

الضابط مسعود فى حيرة، لا يدرى ما الذى يفعله بهذا الولد الذى يرفض أن يلعب، ويصر على أن يرى نفسه رجلا قبل الأوان، قال ناهرا

- ما الذى جاء بك !

- لقد جئت لتعيد لى بندقية أبي !

- إن بندقية أبيك ستكون فى يد المجاهدين،

أليس هذا ما تريد؟

- أريدها أن تكون سلاحا فى يدى أنا !

- وماذا تريد أن تفعل بها. لقد أخبرتك أن لا مكان لك بين هؤلاء الرجال !

- سآخذ بندقيتى وأذهب !

قال الضابط فى دهشة.

- إلى أين؟

- سأذهب إلى أرض المعركة، سأذهب إلى الهاني !

- لقد انتهت يا ولدى معركة الهانى منذ زمن طويل..

والمعركة الآن فى أرض أخرى لا تعرفها !

قال علي

- سأهتدى إلى أرض المعركة، أعطنى البندقية !

في هذه اللحظة أدرك الضابط مسعود أن لا فائدة فى إرجاع علي عن رأيه، إنه لا بد أن يرضى بالأمر الواقع، وأن يقبل عليا جنديا بين جنوده.

قال فى محاولة أخيره

- إن الحرب ليست عملية هينة يا ولدي، إنها موت ودماء وجراح

رفع علي رأسه فى عناد

- إنها شقاء وتعب، جوع وعطش، أسر وتعذيب !

- سأتحمل مثل بقية الرجال !

لم يقل الضابط شيئا، تعلقت أنظار الرجال به وهو يذهب ويحضر البندقية ويسلمها إلى علي فى صمت وإذعان.

لقد فرض هذا الولد الصغير إرادته على هذا الضابط الذى شهد أعظم المعارك. وقف علي وهو يحمل البندقية وقفة استعداد تليق بجندى فى ميدان القتال فى حين أخذ الضابط القلم، وأضاف اسم علي عبد القادر إلى قائمة المجاهدين، وقد غمر قلبه إيمان عظيم بأن شعبا يضم صغارا مثل علي غير قابل للهزيمة.

امرأة من ضوء

في يوم عرسها ذهبت متسللاً أقتحم عليها مخدعها، اخترعت لحظة كنت أعرف أني سألقاها بمفردها، فجئت إليها لكي أعاتبها لأنها تركتني وتزوجت من رجل غير، وقفت مرتعشاً وأنا أراها تجلس على مرآتها تكمل زينتها، تأملت مسحوراً الجمال الذي يتوهج وسط غرفة تزينها الأكلمة المنقوشة والأطباق المزخرفة بألوان زاهية معلقة علي الحائط خلفها، نظرت مشدوهاً إلى الحلي التي تزين شعرها وجبينها وتغطي عنقها وصدرها وإلي الخواتم في أصابعها المخضبة بالحناء، وأساور الفضة في معصميها وخلاخيل الذهب في ساقيها، صبغت أهدابها الطويلة بكحل داكن السواد فتوهج اللون اللوزي في عينيها وبدا السواك ندياً لامعاً فوق شفتيها، تورد الوجه كقرنفلة في مسقط النور، فبدأ كل شئ فيها يشع كأنها تمثال من الضوء، سبحت في دائرة الضوء ولم أقل شيئاً، أشرقت ابتسامة عائشة وهي تراني أقف مبهوراً أمامها، وتقدمت تأخذني على حضنها، وتضع رأسي بين نهديها، ضمتني بقوة بين ذراعيها، وأحنت رأسها فوقي، تهدلت كراديس الشعر الأسود تغطيني وأحسست

بأنفاسها تحرق عنقي، فاح عطر الأعشاب البرية الذي غسلت به شعرها وغمر كياني كله، نشر العطر أجنحة أقلتني إلى مدينة أسطورية مسقوفة بأقواس قزح لا تحصى دفنت رأسي في صدرها وتمنيت أن أبقى هناك إلى الأبد، انتهى الأبد سريعاً، وأفقت من غيبوبة العطر والجمال والنشوة، وجدتها تقدم لي خلوط الفرح، طبقاً من ثمار أشجار السدر والبطوم واللوز والحمص المقلي، تحولت إلى كائن شفاف لا يهتم بالأطعمة ولا يقوى علي الكلام، قبلت في أمتنان يدها المخضبة بالحناء، وانطلقت إلى الشارع أعدو، كانت الفرحة مهرة جامحة تنقلني وترفض أن تتوقف، فعدوت وعدوت حتى وجدتني أبتعد عن القرية وموسيقى العرس حيث الخلاء وكثبان الرمال، أنهكني الإعياء والفرح، فارتميت فوق كثيب من الرمل وطفقت أبكي.

****

أعطى المطر فسحة من الوقت لأهل باريس، رأوا الشمس تشرق في قبة الكون بعد غياب أيام، فتركوا المطاعم والأسواق والحانات والمكاتب. وهرولوا إلى حدائق

التولاري، تركت الفندق وانضممت إليهم، كان هاجس عائشة قد جاء يهاجمني ويملأ علي وجداني، لعل ما أيقظه هو هؤلاء الرجال والنساء الذين يتعانقون في الشارع والحدائق ابتهاجا بتباشير الصيف، سرت أشق طريقي وسط مهرجان من الألوان والعطور والسيقان والصدور أبحث عن امرأة مضيئة تفوح من شعرها رائحة الأعشاب البرية، اهتديت إلى امرأة حسبت أن لها عطراً يشبه عطرها وابتسامة تشبه ابتسامتها، سحبتها من يدها إلى ركن في الحديقة أعانقها وأتعرف إلى عائشة في شعرها وعينيها، أردت أن أحتفل باهتدائي إليها فأخذتها إلى متجر بشارع " الشانزيليزيه" أهديتها خاتماً وقارورة عطر، صعدت بها إلى برج إيفل أرقب معها الدنيا من قمته العالية وأستجلي برفقتها معالم باريس العابقة بعبير التاريخ، وأعترف لها بالحب الذي أحتفظ به في قلبي لامرأة مضيئة مثلها، شاهدت من فوق البرج العشاق يتنزهون في قوارب تشق مياه نهر السين، فتركنا البرج وهبطنا إلى النهر نستأجر قارباً سياحياً ونشارك العشاق متعة العناق فوق مياه النهر، أحسست بالبهجة التي تغمر الكون من حولي فغنيت لصاحبتي أغنية شعبية كنت

أسمعها في أعراس القرية تتحدث عن امرأة مشعة مثلها ما أن رأى القمر نورها حتى اختفى حياء وخجلاً، ورأيت أنه من المناسب ونحن بجوار "اللوفر" أن آخذها في زيارة إلى "الموناليزا" سيدة نساء الدنيا علها تبارك بابتسامتها الخالدة صحبتنا. قطعنا التذكرة وذهبنا إلى غرفتها، وقفت في خشوع أمامها، رأيتها تنظر نحوي بعينين مليئتين بالحزن والأسى، وتركتها وأنا أسحب صاحبتي معي دون أن أعرف سبباً لحزنها، كان النهار قد انقضى فأخذت صاحبتي إلى العشاء والرقص بمطعم شرقي بالحي اللاتيني، وانتهت ليلتنا إلى غرفة نومي بالفندق، وعندما جاء الصباح سألتها عن اسمها فوجدتها لا تفهم سؤالي ولا تجيد لغة أخرى غير لغتها الفرنسية التي لا أعرفها، أدركت لماذا كانت "الموناليزا" تنظر نحوي في أسى، دفعت للسيدة الفرنسية ثمن صحبتنا، وسألتها أن تمضي فأنا أبحث عن امرأة أخرى اسمها عائشة.

****

سنوات قبل عرسها كانت عائشة ترقب هذا الوله الذائب في عيني، فتداعبني في حضرة نساء العائلة قائلة "لن

أتزوج أحداً غيرك" وتضحك في سعادة ضحكاً كأنه الغناء، أحس بالنشوة وأقف مبهوراً لا أدري ماذا أفعل فتنهزني أمي قائلة " اذهب والعب"، أذهب لأشارك بقية الأطفال ألعابهم ولكن خيالي يبقي طوال الوقت يطوف بعائشة، وشعور غامض لذيذ يشدني دائماً إليها فاترقب في لهفة رؤية عينيها وأختلق الأعذار للذهاب إلى بيت عائلتها، وأجد في نفسي دائماً رغبة عارمة لأن ألمسها فأحرص في كل مرة أقابلها علي أن أمد يدي لكي أصافحها، وما أن ترى يدي حتى تأخذها وتبقيها لحظات في يدها وقد أدركت كنه مشاعري، فأحس بلمسة يدها ترسل خدراً لذيذاً يغمر جسمي كله، كنت طفلاً لا أعي سبباً لهذا الشعور الغريب الذي يشدني إليها ولا أدرك له تفسيراً، كل ما كنت أعرفه وأهمس به لأقراني من الأطفال هو أنني عندما أكبر سوف " أتزوج عائشة".

****

في حي الأوبرا كانت عائشة تضع فوق جسمها برفانا من كريستيان ديور، تجلس وحيدة إلى مقهى السلام، تنفث عطرها وتبعث ضوءاً انعكس علي رخام صدرها

وترتشف في هدوء قدحاً من البراندي، كانت تجلس في جلال وكبرياء، وكأنها وحدها من يعرف كيف يدير الكون، أدركت أنني ما زلت ضحية سحرها، تركت شغلاً كنت أريد إنجازه ووجدت قريباً منها مقعداً خالياً فأطلقت السلام في صمت وجلست أتأمل الضوء الصادر منها، لعل اسمها صار ليزا أو كريستين أو مادلين، سألت عائشة إذا ما كانت تذكرني، سألتها في السر سؤالا صامتاً لم يسمعه أحد غيري، ولكنها تلقت الإشارة ورفعت رأسها نحوي تتفحصني بعناية وعندما عرفت من أكون أشرقت الدهشة في عينيها، نهضت جذلى من مقعدها وجاء نحوي، أخذتني علي الفور إلى حضنها، وعلي مشهد من كل الجالسين في المقهى وضعت رأسي فوق رأسها وغطتني بجدائل شعرها الذهبي، حاولت أن أتعرف على رائحة الأعشاب البرية في شعرها فلم أستطع، كان عطر كريستيان ديور غريباً عني، إذا فهذه ليست عائشة، أو لعلها هي، لم أكن على يقين من شيء، انتشلت رأسي من صدرها كي أنظر مرة أخرى في وجهها وأتعرف إلى عائشة في عينيها، ولكنني وجدتها ما تزال جالسة إلى مقعدها تستقبل

صديقاً جاء يطبع قبلة سريعة على فمها، ويعتذر عن مجيئه إليها متأخراً.

****

كان الجو صحواً، وكانت عائشة قد ضربت لي موعداً في مقهى بحدائق بولونيا، جلست أرتشف القهوة وأنتظر مجيئها، رأيتها من بعيد قادمة نحوي كشهاب النور، أضاء مشهد قدومها القناديل التي انطفأت في قلبي منذ أعوام الطفولة، وعبقت في الجو رائحة الأعشاب البرية، هرولت نحوها أعانقها وأشكر لها مجيئها في موعدها فالغربة في هذه المدينة الكبيرة كادت تسحقني، كانت تضع فوق جسمها لحافاً قروياً وترتدي تحته فستاناً مزركشاً تستعمله عند ذهابها إلى الأعراس، مازحتها ضاحكاً.

- ألا تعلمين أنك في مدينة الموضة؟

لعل عائشة في طريق مجيئها من قريتنا إلى هذا المقهى الباريسي لم تكن قد مرت بمتاجر الشانزيليزيه ولم تكن قد عرفت أن بيير كردان وماكسيم وكرستيان ديور

وغيرهم من أصحاب بيوت الأزياء والموضة قد اخترعوا شيئاً يفوق جمال هذا الفستان الذي ترتديه، ففي القرية لا ترتدي مثله إلا ابنه الشيخ، فكيف إذا ترضى أن تستبدله بفستان غيره، سألتني إن نذهب للتنزه تحت الأشجار فهي لا تستأنس للجلوس في المقاهي حتى لو أنت في حدائق بولونيا، اشتريت لها مشروباً أخذته معها، وقلت لها ونحن نتنزه في الحديقة.

-لماذا لم تنتظريني حتى أكبر وأتزوجك؟

- كنت ستجد امرأة أخرى غير عائشة التي شب قلبك بها!

قلت لها أنني طوفت بلداناً كثيرة من أجل أن أهتدي إليها، وأنني تعذبت في رحلة البحث عنها، فأنا ما أن ألقاها حتى تذوب كالطيف أو السراب، وأنني الآن وقد وجدتها فسوف لن أتركها تذهب عني أبداً، ومددت يدي أتحسس يدها وأملأ أنفي من عطرها وأضيع في نشوة حضورها، أغمضت عيني مستمتعاً بهذه اللحظات التي جمعتني بها بعد فراق امتد لأكثر من ثلاثين عاماً، سعيد بأن أجدها تقف

بجواري بعد هذا العناء الطويل في البحث عنها، تتنزه معي في حدائق باريس وتبلل جفاف غربتي وتعيد إلى قلبي ذلك الوهج الذي غطاه رماد السنين، ولكن ما أن فتحت عيني حتى وجدت أن عائشة قد تركتني وغابت. لا بد أن الوقت قد تأخر بها، قلت في خاطري، فأنا أعرف أن لها أباً لا يرضي بغيبتها عن البيت أبداً، وقد آثرت الانسحاب في صمت لأنها تعرف أنني كنت سألح علي بقائها لو أخبرتني برغبتها في الرجوع إلى البيت، عاودني ذلك الشعور بالخيبة الذي كنت أحس به قبل الاهتداء إليها، ها هي مرة أخري تتركني لحيرتي ولهذا الإحساس بالغربة يطبق علي صدري وتنسحب كشعاع الشمس من حياتي دون أن تقول وداعاً.

****

عندما أخذت قطار الأنفاق عائداً إلى الفندق، كنت أري نساء كثيرات يزدحم بهن القطار، في كل محطة تهبط أفواج وتركب أفواج أخري، وكنت أري بينهن نساء مبهجات رشيقات كأنهن خرجن للتو من صفحات إحدى المجلات التي تحتفل بجمال الجسد الإنساني، ولكن شيئاً فيهن يظل دائماً

ناقصاً، شيئاً يجعل أكثرهن جمالاً وأنوثة لا تشع وهجاً كذلك الوهج الذي تفيض به عائشة، تذكرت أنني في حياتي وتجوالي قد التقيت وتعرفت بنساء كثيرات، ولكنني ما أن أرتبط بعلاقة مع إحداهن حتى أنصرف عنها خائباً، إذ سرعان ما أكتشف المسافة التي تفصلها عن عائشة، وأجد أن إحساساً ينمو معي ويكبر كلما كبرت في العمر والتجربة وهو أنني قد لا أهتدي أبداً إلى امرأة يمكن أن تمنحني لحظات لها ذات البهجة وذات المذاق الذي عرفته وأنا أصافح عائشة أو أعانقها، ويعذبني الشعور بأن تلك العلاقة الطفولية البريئة الساذجة العابرة قد تمنعني من إقامة علاقة حب سوية مع امرأة أخرى وأن الطفل الذي كنته منذ ثلاثين عاماً مضت قد يأبى الاستجابة إلى ندائي ويرفض أن يمنحني وهج قلبه الأخضر، لن أنسي عائشة، ولن أنسي ذلك العاشق الأهوج الصغير، فهما الاثنان يعيشان في دمي، وهما الاثنان يطالبان- بكل إلحاح وعنف وقوة – بأن أجعلهما يجتمعان ويتعانقان مرة أخرى.

- ٣ -

برق الليل

لم يكن أحد ممن يعرفون " برق الليلَ " يظن أو حتى يتخيل أن هذا الكهل الداكن السواد الذى جاء من أقصى مناطق الجنوب، ليسكن باب البحر منذ أكثر من عشرين عاما، يتقن الحديث بلغة أجنبية ذات انتشار عالمى هى اللغة الفرنسية.

عرفه الناس فرانا يقف أمام موقد النار فى كوشة الحاج التى تشتغل بالقش والأحطاب، يعد له بجوار الخبز صحاف الكعك فى الأعياد والمناسبات، ثم اكتسحت أفران الكهرباء أحياء طرابلس فأقفل الحاج كوشته وتحول برق الليل إلى خدمة البيوت وتدبير شئون حياته فى المدينة التى جاءها غريبا، من الأجر الذى يتلقاه من ربات هذه البيوت نظير شراء حوائج المنزل أو اصطحاب الأطفال إلى المدرسة، ونتيجة لشخصيته الوديعة المسالمة أصبح " برق الليل " موضع ثقة أهل الحي، تفتح فى وجهه الأبواب وتستقبله البيوت حتى فى غياب رب الأسرة، ليتولى مساعدة

النساء فى أعمالهن المنزلية من طبخ وغسل وكنس دون أن يثير ذلك حفيظة أحد.

كنت أراه من بعيد عندما أذهب صدفة الى ذلك الحى وهو يدفع أمامه العربة الصغيرة التى يستخدمها لنقل الحوائج التى يشتريها إلى البيوت. فأجده وكأن وجهه اختزن شيئا من وهج وسطوع النار التى كان يحترف الوقوف أمامها أثناء عمله فرانا، فأضحت بشرته السوداء تتألق سطوعا وإشراقا وتضفى على وجهه مسحة الرجال الصالحين.

وحدث، ذات مساء، أن جاءت باب البحر عائلة فرنسية تضم رجلين وثلاث نساء. أنزلتها سيارة الأجرة فوق الهضبة المطلة على برج " بوليلة " ونشر أحد الرجلين خارطة كبيرة أمامه، وسار تتبعه بقية العائلة عبر زقاق ينحدر باتجاه " الوسعاية " حيث حنفية الماء القديمة. وقفوا هناك يجيلون أبصارهم فى الأبنية المحيطة بالوسعاية ثم تقدم حامل الخارطة يتفحص واجهة منزل قريب، فى حين انهمكت إحدى النساء فى التقاط الصور لذاك المنزل. تجمع أطفال ورجال حول العائلة الفرنسية وخرج صاحب البيت غاضبا يطلب تفسيرا لهذا التطفل على بيته. وعندما رأى

المرأة تواصل التقاط الصور، علا صوته وهو يقترب منها مهددا، يريد أن ينتزع آلة التصوير من بين يديها.

استقطب المشهد الصاخب مزيدا من الزحام وبحث الحاضرون عمن يعرف لغة القوم فلم يجدوا غير العارفين باللغة الإنجليزية، وهى لغة لا يعرفها هؤلاء الفرنسيون. وعندما ظهر " برق الليل " عائدا من السوق يدفع عربته اليدوية المملوءة بأربطة الفجل والبصل والجزر وسلال الخبز والفاكهة، لم يخطر ببال أحد من المتحلقين حول الفرنسيين، أنه هو الذى سيحل المشكلة. إلى أن رأوه يترك عربته لدى صاحب دكانة قريبة، ويقتحم الزحام قائلا إنه سيتولى التفاهم معهم.

وقبل أن يفرغ الناس من تبادل النظرات التى تحمل الشك وعدم التصديق وإطلاق الضحكات الساخرة لقوله هذا، كان برق الليل قد وصل إلى حيث العائلة الفرنسية وصار يرد على رطانتهم برطانة مماثلة، بيسر وسهولة ودون عناء. ووسط أمواج الدهشة والانبهار، أبلغ المحيطين به أن لهذه العائلة الفرنسية جدا قضى الأعوام الأخيرة من حياته فى

طرابلس، حيث كان يدير مركزا لتصدير (الحلفا) ويقيم فى هذا البيت.

انتهى سوء التفاهم الذى أثار حيرة الناس وتحول العراك إلى وليمة أقامها صاحب البيت الجديد لأحفاد صاحبه القديم، فى حين تربع برق الليل بين العائلتين، الليبية والفرنسية، يؤدى بسعادة بالغة مهمة تيسير التواصل بينهما.

ظل برق الليل على مدى أيام كثيرة أعقبت ذلك اليوم موضع احتفاء من أهل الحي، يتناقلون فى اندهاش حكاية إتقانه اللغة الفرنسية التى لا يتقنها حتى حملة الشهادات العليا من أهل باب البحر، ويسألونه عن كيف ومتى وأين تعلم هذه اللغة، فكان يعيد على أسماعهم قصة الضابط الفرنسى الذى قضى فى خدمته جزءا من صباه وشبابه عندما كان الفرنسيون يحتلون جنوب البلاد. وأراد أثناء ذلك أن يعود لالتقاط رزقه كما تعود دائما، من خدمة البيوت ورعاية الأطفال ولكنه لا يستطيع. جدران هذه البيوت التى كانت مفتوحة فى وجهه قد أوصدت فجأة أبوابها، ووجد أن النساء اللاتى كن يرحبن به فى بيوتهن صرن يتهيبن الحديث معه ويمتنعن عن تكليفه بأية خدمة، ولم يفده شيئا أن يصرخ أمام

هذه الأبواب المغلقة أنه برق الليل الذى يعرفونه وأنه مازال على استعداد لغسل الصحون ومسح البلاط وقضاء الحوائج من السوق، فيرد عليه الرجال قبل النساء، أنهم أصبحوا يعرفون قدره ويحترمون علمه ويستحون من معاملته معاملة الخدمة والدراويش، فهو أرفع شأنا من هذا المقام، ولكن المقام الرفيع الذى اختاروه له صار كارثة بالنسبة له. فقد حجب عنه كل مصادر الرزق والطعام.

وبعد أن كان يتخير بين البيوت أيهما أفضل طعاما ليلبى دعوته للغداء أو العشاء، صار الآن عاجزا عن تدبير كسرة خبز يسد بها رمقه. إنه لا يتقن مهنة أخرى غير خدمة البيوت، والكلمات الفرنسية التى يعرفها، لا تضمن له عملا ولا تطعمه خبزا فى باب البحر، والصحة لا تسعفه للقيام بأعمال العتالين فى السوق أو الميناء، فماذا تراه يستطيع أن يفعل.

ذهب مرة أخرى يطرق البيت ويلح فى الرجاء بأن يعيدوه إلى سابق عمله، لأنه بدون هذا العمل سيموت جوعا. ولكن ذلك أصبح مستحيلا الآن، فكيف يمكن لنساء العائلات اللاتى كن يختلطن به باعتباره رجلا محدود المدارك مثل

الأطفال، أن يعدن إلى ذلك بعد أن بز بعلمه وإدراكه أكبر العقول. كان الجميع يعتذرون عن قبول خدماته، ويهرعون فى ذات الوقت إلى إسعافه ببعض الطعام، فكان برق الليل يرفض فى البداية طعاما لا يأتيه عن طريق العمل، ثم صار تدريجيا يقبل هذه الضيافة التى تحولت إلى صدقة، ثم تحولت فيما بعد إلى عملية استجداء وتسول من طرفه، إلى أن أصبح التسول حرفة احترفها برق الليل. تحول الرجل إلى شحاذ يحمل مخلاته ويتكئ على مخلاته بعد أن هجر عربة اليد وارتدى أسمال الشحاذين، وعندما رأيته آخر مرة يقف أمام مسجد الناقة، بعد صلاة الجمعة، يمد يده متسولا، وقد تقدم به العمر، وضاع الألق القديم الذى يشع من بشرته السوداء، تأسفت لهذا المصير الذى انتهى اليه الرجل، وتعجبت لهذا العقاب الذى أنزلوه به، لا لشيء إلا لأنه أكثر علما ومعرفة مما كانوا يظنون.

هكذا هم أهلنا فى باب البحر.

الامتحان

الدخول إلى عالم الأطفال امتحان لا ينجح فيه كل الناس، وحتى تستطيع أن تحصل على تأشيرة دخول إلى عالمهم، فإن أوراقا لا بد أن تقدمها، لا بد أن تفتش فى خزائن نفسك عما تبقى فيها من صدق وبراءة تستطيع بهما أن تحصل على الموافقة!!

إننى شخصيا كلما أردت أن أرتاح قليلا وأبحث عن سعادة لا يقدمها النادى أو الشاطئ أو المقهى أو الكتاب، فإننى أذهب إليهم، أسأل عن تأشيرة تسمح لى بالمرور إلى مدينتهم وأعيش لحظات مع صدقهم وبراءتهم.

وهناك فإن عالما آخر ينتظرك، عالما أبهى وأجمل وأكثر صدقا وشفافية وحبا.. لا وجود هناك لأمراض القلق ولحظات اليأس وهموم المعيشة والرزق، ومشاكل الدنيا والعمل، وأخبار السياسة وصداعها. لن تمضغ سيرة الآخرين كما فى مجالس الكبار، ولن يكون هناك حديث عن مشاكل الحياة المعقدة كما فى الكتب، ولن يكون هناك نقاش لأكداس التخلف التى تملأ المجتمع وأمراض العصر والكوارث التى تملأ العالم كما فى الصحف والإذاعات وأحاديث المجتمع. إن

عالما آخر يفتح أمامك الآن ذراعيه، عالما أسطوريا يذكرك بمدينة الحلم وطائر الأسطورة وسندباد البحر، حيث تسافر ما طاب لك السفر فوق بساط الريح، وتدخل قصر الأميرة النائمة، وتعقد صداقة حميمة مع (ساندريلا) وتلتقى عندها بالجنية الطيبة، وترتدى إن شئت أجنحة (كاسبر) وتزور جزيرة روبنسون كروزو. سيكون حديثهم معك عن الأساطير والحكايات والخيال، وستدخل معهم اللعبة وتنشئ معهم مدينة تصبح فيها الأرانب أمراء وأميرات، والعصافير فلاسفة، والثعالب رجال سياسة وحكمة ودهاء. ستجد الريح تلقى خطابا، والشجرة صارت مطربة، والزهور والورود والأعشاب تعقد مهرجانا للرقص والموسيقي.

وأنت فى حضورهم فإن عالما قديما مليئا بالأمراض ينتهى ويتلاشى، وعالما جديدا نقيا يبدأ الآن!

لقد مللت ما تمتلئ به الدنيا من أكداس الكذب والنفاق والمجاملات، مللت الضحك الكاذب، والغضب الكاذب، والحماس الكاذب، والحزن الكاذب، وها أنت هنا تجد الضحك نقيا كالمطر، والكلام صادقا شفافا بريئا كأنّه لغة الملائكة، وستجد العدوى قد انتقلت إليك. وأنك هنا بعكس ما

كنت فى عالم الكبار.. تضحك بصدق وتحب بصدق وتتكلم بصدق.. وستكتشف كم هو جميل هذا العالم ! ولكن قبل أن تذهب، فإن عليك أن تعلم أن الدخول إلى عالمهم امتحان صعب، إذا فشلت فيه فإن هناك خطأ ما، خطأ ليس هينا فى نفسك، خطأ قد يفسد كل حياتك، وأن عليك بسرعة أن تبحث عنه وأن تهتدى إلى حل له، وإلا فإنك خاسر إلى الأبد!!

الأصدقاء

رأى الطفل البحر لأول مرة..

راعه أن يكون أزرقا كبيرا منتشرا فى كل مكان، شاسعا بحد الأفق.. بدأ شيئا فشيئا يتعرف إليه، ويقترب بحذر منه، ثم جاءت أرانب موج البحر تركض نحوه، ففرح الطفل، وقرر على الفور أن البحر صديقه!

شاهد من فوق سطح البيت النجوم، راعه أنها كثيرة.. كثيرة، وحاول وقد تعلم حديثا كيف يعد الأشياء، أن يعدها، فشل، لكنّه رآها جميلة تضيء سواد الدنيا.. فقرر من فوره أن كل هذه الأنجم أصدقاء له!

رأى الشمس تشرق من خلف الأفق، كرة تتوهج وتضئ، تمنى لو يملكها، أو أن أحدا يذهب الآن ويحضرها إليه كى يلعب بها، قرر أنه قد أحب الشمس، وأنّه عندما يكبر سوف يسافر لإحضارها!!

المرآة

وقف الطفل أمام المرآة.

رأى ولدا يشبهه يحمل كرة بين يديه.

اقترب الطفل من الطفل، ابتسم له فابتسم له الطفل الآخر.

رآه قريبا منه، ويلبس مثل ثيابه، فى يده كرة مثل كرته، فأحب الطفل، وأراده أن يصبح منذ اليوم صديقه!

تقدم منه يسأله فى حب أن يلعب معه!

الطفل الآخر يتقدم مبتسما ويرحب بالفكرة!

جاء يمد إليه يدا، يأخذه كى يلعب فى الساحة، اصطدمت يده بجدار المرآة.

اغتاظ الطفل.

ذهب يبحث عن حجر علّ جدار المرآة يتهدم كى يأتيه الطفل الآخر.

تحطمت المرآة..

لكن الطفل الآخر لا يظهر..

ذهب يبحث عنه، يسأل فى كل مكان عن طفل آخر يشبهه، يلبس مثل ثيابه، ولديه كرة مثله، أين يمكن أن يلقاه؟

لكن أحدا لا يفهم.. والطفل يعيش على أمل أنّه فى يوم ما سوف يلاقيه!

الكتاب

أخذ الطفل كتابا، جلس وحيدا يكتشف السر!!

كان كتابا يشبه صندوق الألعاب، بلا ألعاب، عله يتحدث عن تربية الأطفال، أو يتحدث عن علم نمو الإنسان، لكن الطفل وقف أمامه مندهشا...

ماذا فيه لينكب عليه أبوه طوال اليوم، ماذا فى هذه الصفحات لتكون مجالا يقضى فيه أخوه الأكبر سهرته فلا يلعب أو يمضى للسوق أو الشارع.

لم يعرف حلاً للغز..

فقرر أن يبدأ فورا فى أكل صفحاته.. لعلّه يكتشف السر!!

المطر

هطل المطر غزيرا وأفسد عليه اللعب!

جاء الطفل إلى أبيه محتجاً، يسأله أن يوقف من فوره هذا المطر، كى يكمل ما بدأ من لعب.. لكن أباه نظر إليه حائرا.. لم يقدر أن يفعل شيئا.

فبكى الطفل.. وأدرك بينه وبين نفسه أن أباه لا يعرف كيف يدير الكون!!

الدمية

ما أعجب هذه الصغيرة مع دميتها!

ما أعجب هذه العلاقة التى تنشأ بينهما!

نحن نرى الدمية، ساكتة لا تتكلم، لا تضحك ولا تصرخ، لا تستيقظ ولا تنام، لا تأكل ولا تشرب، لا تسمع ولا تري، ولا تدرك ولا تتنفس، ولكن انظر الى تلك الصغيرة كيف ترى دميتها، كيف تعاملها، كيف تنشئ تلك العلاقة الحميمة معها. انظر إليها وهى تسألها أن تشرب أو تأكل، وهى تسألها أن تستيقظ، أو تدعوها بعد اللعب إلى أن تنام لأنها تعبت كثيرا هذا اليوم.

إن أعظم ما فى عالم الأطفال هو هذه القدرة على إنشاء علاقة مع الأشياء، مع الجماد والنبات والحيوان، هذه القدرة التى كلما كبرنا صارت تتضاءل وتتضاءل حتى تختفى من نفوسنا!

اللعب

دعانى طفل كى ألعب معه فى الشارع.

كان قد اكتشف لدهشته الكبيرة أن من يلعب معهم فى تلك الساحة كلهم صغار فى السن، واندهش لأنّه لا يلقى رجلا يلعب أو سيدة.. لا يجد كبارا مثل أبيه أو أمه يبنون قصورا من طين، ويقيمون المدن الوهمية..

فجاء من فوره يجرى ودعانى أن ألعب معه فى الشارع.

لم أقدر..

غمر وجهه فى الحال تعبير يمتلئ أسي.

كأنه أدرك فى تلك اللحظة أن أحدا ما يمنعنى قسرا من ذلك!!

اكتشاف

اكتشفت يوما كيف أن الأطفال يعرفون هم أيضا كيف يكيدون للكبار.

فقد قلت لابنى يوما أسأله:

- عم تتحدث أنت وصديقك؟!

قال بلهجة من سجل نصرا:

- (هذه أشياء لا يعرفها إلا من كان فى سنّى أو سنّه)!

أدركت لحظتها كيف أن الولد يرد لى الكيل عندما جاء يوما يسألنى عن موضوع نقاش بينى وبين صديق، إذ قلت (اذهب والعب.. هذا حديث لا يعرفه من كان فى سنك)!

الكلمة

تجمعت العائلة فى بهو البيت تحتفل بمناسبة ما..

جاء الطفل سعيدا يشارك أهله فرحتهم ويقول:...(كلمة)!

فرآها تحدث تأثيرا لم يخطر أبدا على باله!

العائلة فجأة يغمرها ذعر لم يدر له سببا، بعض رجال العائلة يفرون من الباب، والبعض الآخر صار يغطى وجهه بيديه خجلا، وتعم الفوضى جو البيت ويضيع الحفل، وفى غضب جاءه أكثر من صوت يمنعه أن يفتح فمه بكلام من هذا النوع، أو ينطق هذه الكلمة فى مرات أخرى.. !

ظن الطفل أن الكلمة سحر أو أنها جبل أو أن لها مفعولا مثل الحرب أو الموت أو الشيطان أو الأشياء المرعبة الأخرى مما يسمعه فى قصص جدته!

وقرر بينه وبين نفسه أنه كلما أراد أن يمنع الشمس من الشروق، أو يجعل المدينة أو المدرسة تختفى من الدنيا، أو يمسخ خصما من خصومه فى اللعب.. هو أن يلقى فى وجهه بهذه الكلمة!!

تشارلز وديانا

بدأت علاقتى الصامتة، البعيدة، بالأمير تشارلز منذ أن وضع دبلة الخطوبة فى يد الليدى ديانا سبنسر. اختياره العبقرى لهذه الفتاة بالذات هو الذى أخرجنى من عزلتى، وأعادنى إلى قراءة الصحف ومشاهدة التلفاز، وجعلنى أكرس أغلب وقتى للاهتمام بالأمير تشارلز وخطيبته الرائعة. فثمة شيء مشترك بينى وبينه اكتشفته نتيجة هذه الخطوبة، وسأفصح عنه دون إبطاء. سنوات عديدة قبل ميلاد الليدى ديانا، وقع فى يدى كتاب يضم منتخبات من قصائد الحب، وعلى غلاف هذا الكتاب رسم لوجه فتاة، يطابق مطابقة كاملة وجه هذه الفتاة التى أخرجها الأمير تشارلز من عالمها المغمور، إلى عالم الشهرة والأضواء. كان رسما بسيطا بلا ألوان، ولا نمنمات زخرفية، ولا تفاصيل تحيط بالوجه. مجرد خطوط سوداء فوق بياض الورق، تظهر وجها تتألق فيه العينان تألقا مبهجا، وهما تنظران إلى البعيد، وتنطقان بمعانى البراءة الممزوجة بكبرياء ملكى.

وتضافرت قصائد الحب فى الديوان، مع صبوات الشباب الأولى، مع تخطيطات ذلك الرسام المجهول، لتصنع

لى حلما، صار مع الأيام يكبر ويتنامى، ويأخذ شكل امـرأة، تمنحها المخيلة صوتا وعطرا ولونا، وتمنحها حياة وحركـة ودفئا، وتغنى صورتها بالايحـاءات والايقاعـات والـدوائر الانثوية اللذيذة، فاذا بها تحتل كل مساحات القلب الفارغـة، وإذا بى غارق فى حبها، لا أرى فى عوالم النـوم واليقظـة امرأة سواها.

هكذا وقعت منذ صباى، فى شباك ذلك الرسم البسيط الساذج، الذى رسمه الفنان لوجه ديانا قبل ان تولد، والذى لم استطع الفكاك منه بعد ذلك أبدا. فقد اصبحت حياتى منذ ذلك اليوم، رحلة بحث متواصل، عن فتاة تشبه ذلك الرسم.

التقيت بنساء كثيرات، وسعيت لإنشاء علاقات حـب مع بعضهن، ولكن تلك العلاقات، كانت سرعان ما تصـطدم بصورة المرأة المثال التى تشبه امرأة الصورة. ولـم يكـن اختيارى لمهنة صحفى متجول، إلا لأن هذه المهنة تتيح لـى فرصة البحث عنها فى أماكن أخرى من العالم، بعد أن فشلت فى العثور عليها بين نساء مـدينتى. طفـت بـلاد الشـرق والغرب، وتهيأ لى فى مناسبات كثيرة أننى رأيتها فى زحـام إحدى الحفلات، أو واقفة بإحدى محطات القطـار، أو تقـرأ

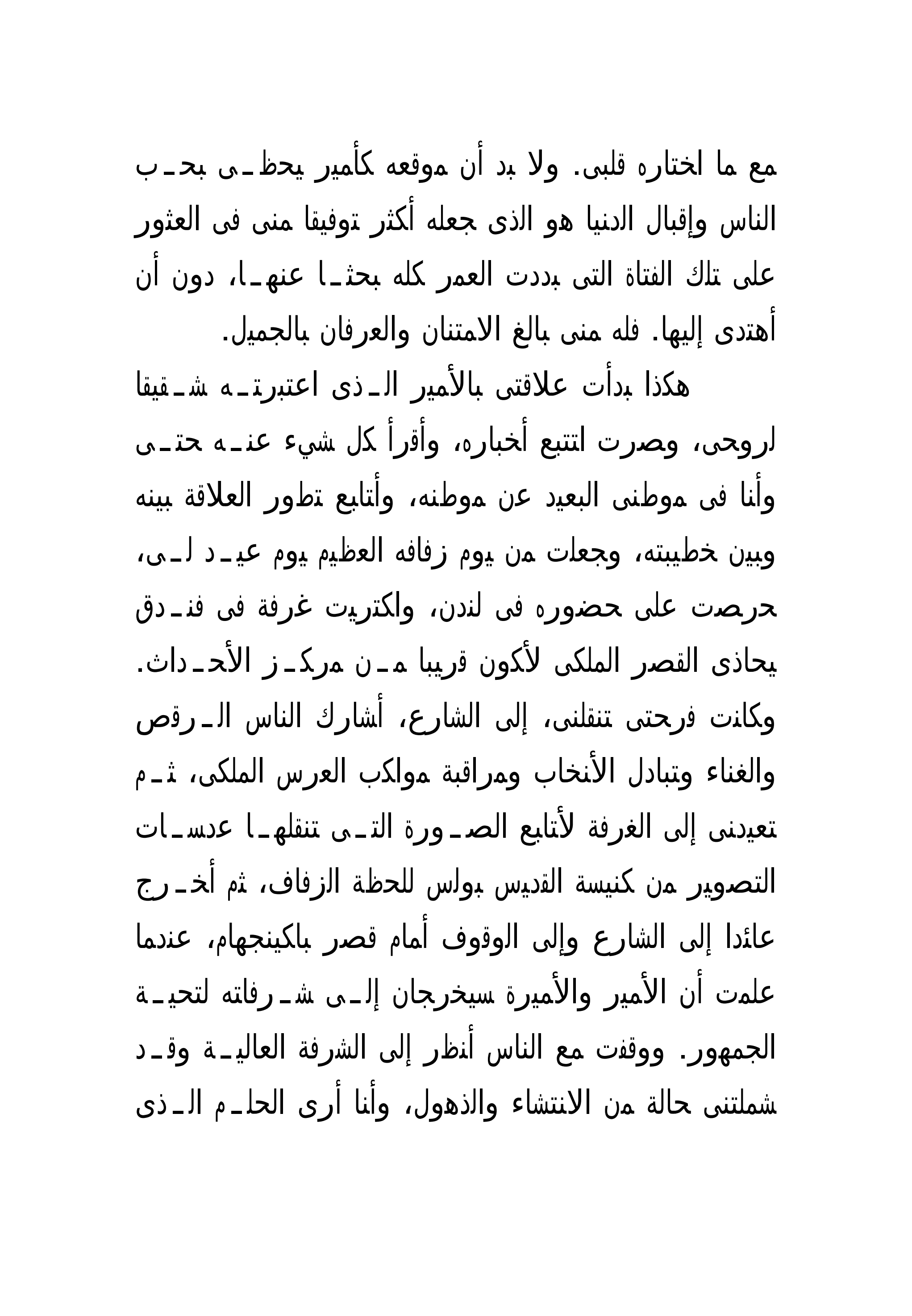
كتابا تحت مسقط الضوء فى نافذة بعيـدة، فكنـت أتحمـل صنوف المتاعب من أجل أن أقترب منهـا، أنتظرهـا فـى المحطة، أو أترصد لها فى مواجهة تلك النافذة، أو أرتاد تلك المحافل العامة، حتى أراها عن قرب، وأكتشف أنها ليسـت هى، فأتركها وأعاود البحث فى أمـاكن أخـرى، وأرصـفة أخرى.

وأدركتنى الكهولة على حين غفلة، فإذا بى مازلـت عازبا، لا أجنى من هذا البحث سوى حصاد الألم والخيبـة، فتوقفت عن ملاحقة الشمس فى دورانها من شرق العالم إلى غربه، ورجعت يائسا إلى دارى، وقـد صـارت العزوبيـة أسلوب حياة. تآلفت معه، ورضيت به، ولم أعد قادرا علـى تغييره، مدركا أن امرأة الحلم التى أشقيت نفسـى بالبحـث عنها، ستبقى على الدوام مقيمة فى غرف الحلم والأسطورة.

وجاءت مفاجأة العمر، التى أشعلت جمر الإثارة فـى حياتى من جديد، عندما أشرق وجه ديانـا فـوق صـفحات الجرائد وشاشات التلفاز، ليثبت لى أن لامرأة الحلم تجسـيدا عبقريا فى واقع الحياة، فها هى كما رأيتها منذ عقود أربعـة مضت، فوق غلاف كتاب شعرى. راقبتها وهـى بصـحبة

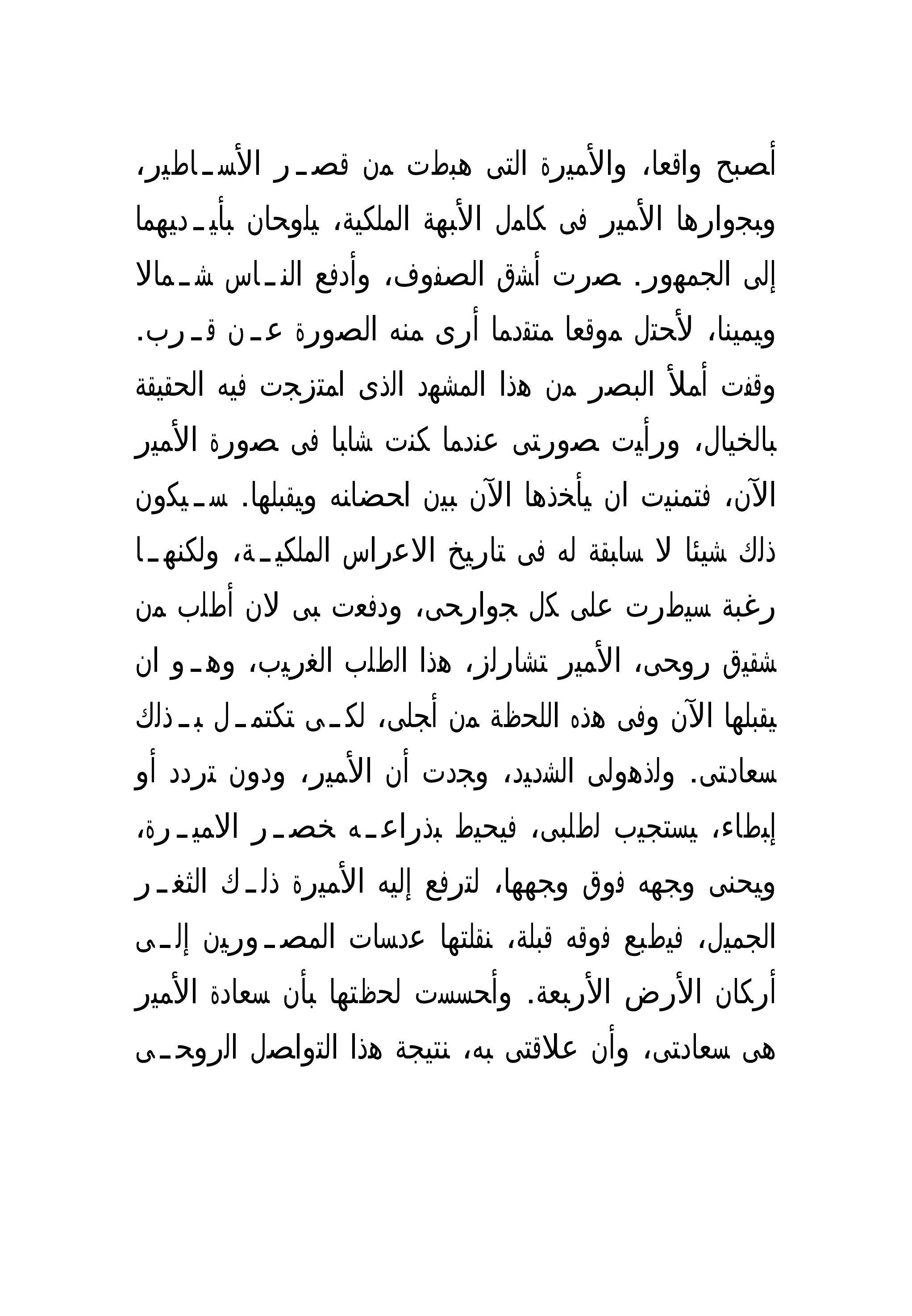
خطيبها، تمشى وتبتسم وتتكلم، فلم أر إلا ما كنت أراه فى مخيلتى على مدى أربعين عاما. لقد عشت كل هذه الأعوام، بصحبة هذه الابتسامة، وأحسست بمذاقها اللذيذ فى ريقى، ورأيت سحر هاتين العينين، بما فيهما من ألق ينتمى إلى النجوم، لا تزيده الرموش فى حركتها السريعة إلا إبهارا للناظرين، وانسكب هذا الصوت العندليبى، رحيقا نديا فى مهجتى. إنها هى. الأنف والفم والعينان، الشعر والعنق والاذنان، الأصابع والذراعان، الصدر والخصر والساقان، كل هذا الضياء، وهذه الشفافية، وهذا الحضور المخملى المليء بالكبرياء، وهذه البراءة التى تنتمى لكائنات السماء، تماما، كما حملتها فى ذاكرتى، وعشت مسكونا بها طوال سنوات عمرى، بذات المقاييس التى رسمها رسام عبقرى لتلائم قلبى.

نعم. لقد تأخرت أربعين عاما عن الظهور. ولكننى لن أتأسف لذلك. بل أحمد ا انها ظهرت أخيرا، لأعرف على وجه اليقين أن حلمى لم يكن هلوسة وجنونا. وشكرا لهذا الأمير الوسيم، الذى اهتدى إليها، والذى شاءت الاقدار أن يتفق ذوقه مع ذوقى، وحسه الجمالى مع حسى، واختياره



مع ما اختاره قلبى. ولا بد أن موقعه كأمير يحظى بحب الناس وإقبال الدنيا هو الذى جعله أكثر توفيقا منى فى العثور على تلك الفتاة التى بددت العمر كله بحثا عنها، دون أن أهتدى إليها. فله منى بالغ الامتنان والعرفان بالجميل.

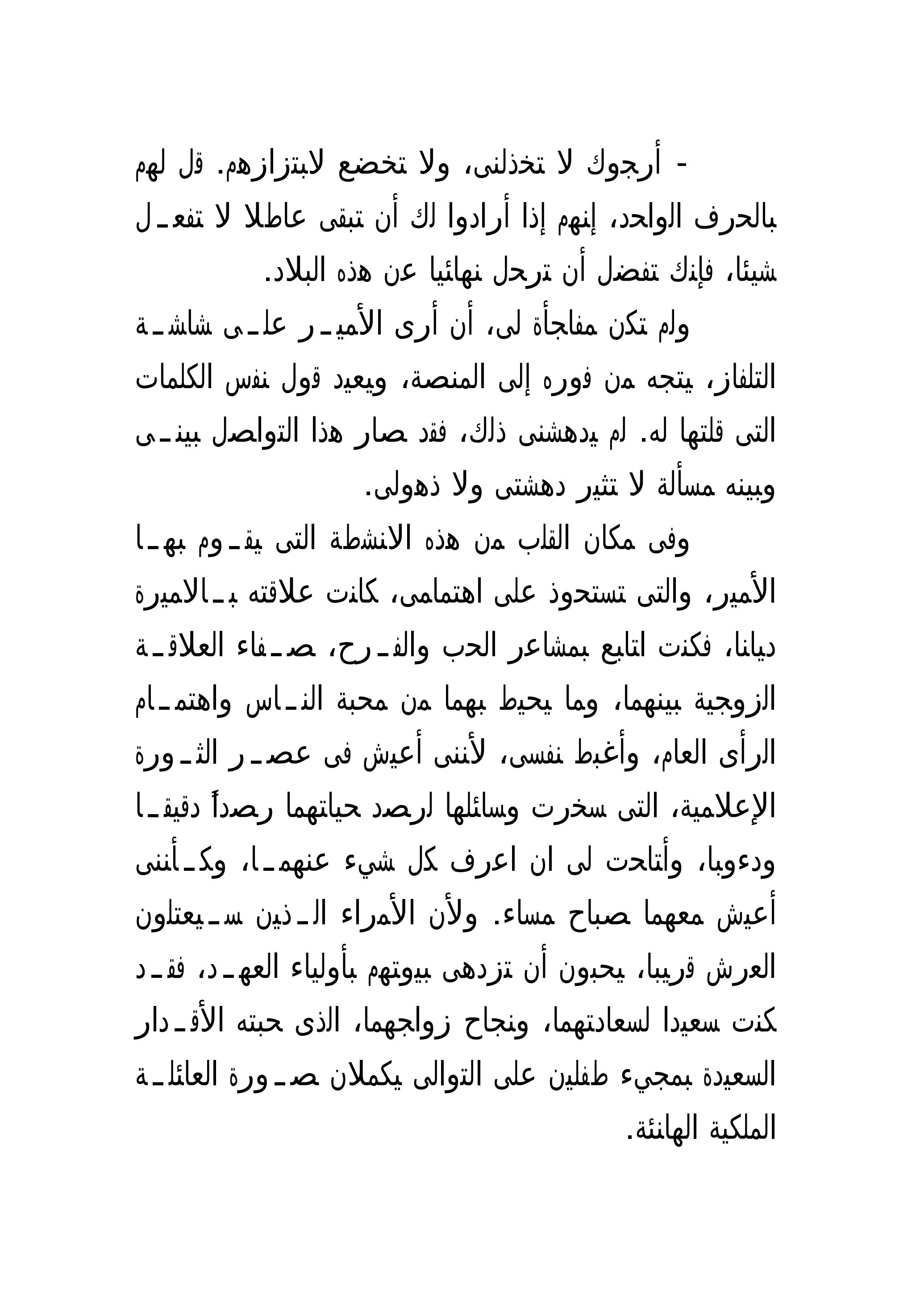
هكذا بدأت علاقتى بالأمير الذى اعتبرته شقيقا لروحى، وصرت اتتبع أخباره، وأقرأ كل شيء عنه حتى وأنا فى موطنى البعيد عن موطنه، وأتابع تطور العلاقة بينه وبين خطيبته، وجعلت من يوم زفافه العظيم يوم عيد لى، حرصت على حضوره فى لندن، واكتريت غرفة فى فندق يحاذى القصر الملكى لأكون قريبا من مركز الأحداث. وكانت فرحتى تنقلنى، إلى الشارع، أشارك الناس الرقص والغناء وتبادل الأنخاب ومراقبة مواكب العرس الملكى، ثم تعيدنى إلى الغرفة لأتابع الصورة التى تنقلها عدسات التصوير من كنيسة القديس بولس للحظة الزفاف، ثم أخرج عائدا إلى الشارع وإلى الوقوف أمام قصر باكينجهام، عندما علمت أن الأمير والأميرة سيخرجان إلى شرفاته لتحية الجمهور. ووقفت مع الناس أنظر إلى الشرفة العالية وقد شملتنى حالة من الانتشاء والذهول، وأنا أرى الحلم الذى



أصبح واقعا، والأميرة التى هبطت من قصـر الأسـاطير، وبجوارها الأمير فى كامل الأبهة الملكية، يلوحان بأيـديهما إلى الجمهور. صرت أشق الصفوف، وأدفع النـاس شـمالا ويمينا، لأحتل موقعا متقدما أرى منه الصورة عـن قـرب. وقفت أملأ البصر من هذا المشهد الذى امتزجت فيه الحقيقة بالخيال، ورأيت صورتى عندما كنت شابا فى صورة الأمير الآن، فتمنيت ان يأخذها الآن بين احضانه ويقبلها. سـيكون ذلك شيئا لا سابقة له فى تاريخ الاعراس الملكيـة، ولكنهـا رغبة سيطرت على كل جوارحى، ودفعت بى لان أطلب من شقيق روحى، الأمير تشارلز، هذا الطلب الغريب، وهـو ان يقبلها الآن وفى هذه اللحظة من أجلى، لكـى تكتمـل بـذلك سعادتى. ولذهولى الشديد، وجدت أن الأمير، ودون تردد أو إبطاء، يستجيب لطلبى، فيحيط بذراعـه خصـر الاميـرة، ويحنى وجهه فوق وجهها، لترفع إليه الأميرة ذلـك الثغـر الجميل، فيطبع فوقه قبلة، نقلتها عدسات المصـورين إلـى أركان الأرض الأربعة. وأحسست لحظتها بأن سعادة الأمير هى سعادتى، وأن علاقتى به، نتيجة هذا التواصل الروحـى

بيننا، والذى شهد أعظم اختبار له هذه اللحظة، قـد ختمـت بأختام المودة الصادقة التى جعلت منها علاقة قدر ومصير.

وعندما بدأت أتعرف على أفكاره وآرائه فى القضايا العامة، اكتشفت تماثلا غريبا بين أفكاره وأفكارى، واكثر من ذلك فقد وجدت أن ما يقوله حول قضايا المعمـار الحـديث، والمحافظة على جمال الريـف، وحديثـه عـن المتـاحف والمكتبات، يعطى صوتا ومعنى، وشكلا ومضـمونا، لكـل الاحاسيس الغامضة التى لم اكن اعتنى بفحصها ولم أمنحهـا نسقا متكاملا إلا من خلال أحاديثه، وكأنه يتكلم بالنيابة عنى. كنت أسمعه وهو يتحدث بتلك البلاغة اللغوية، وذلك الصوت العميق العامر بالصدق والحرارة، فأحس بالفخر لهذا التماثل بيننا. وكنت أحيانا أهمس بتعليق يحمـل التشـجيع، قـائلا أحسنت القول يا تشارلز أو هكذا يجب أن ترد عليهم. وكنت ذات مساء أرقب حفلا ينقل مباشرة على الهـواء، وكانـت صحف ذلك اليوم قد نشرت بعض الانتقادات لتدخله فى أمور تخص الدولة، فوجدت نفسى غاضبا، أقول له، وقبل أن يبدأ الحديث:

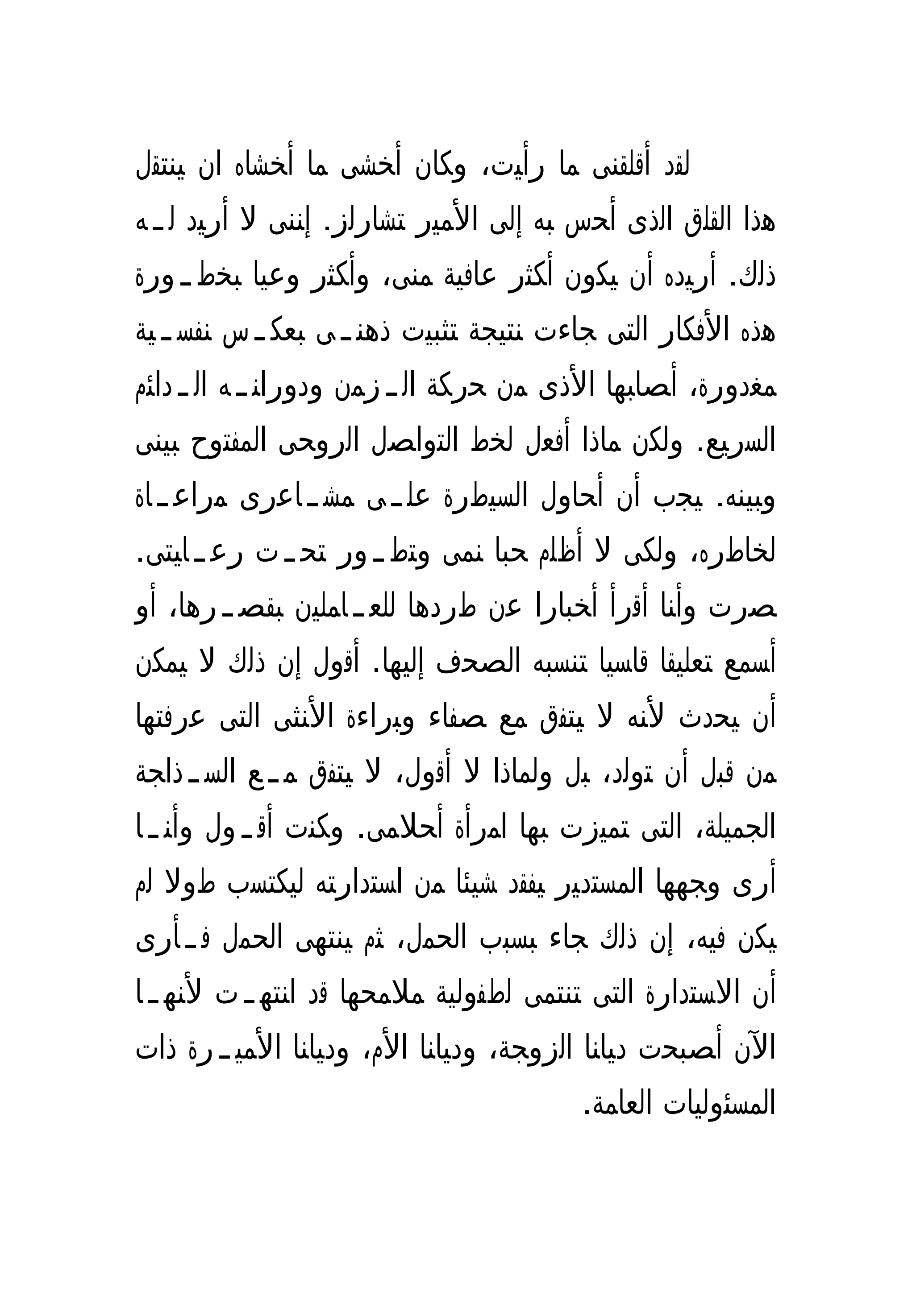


- أرجوك لا تخذلنى، ولا تخضع لابتزازهم. قل لهم بالحرف الواحد، إنهم إذا أرادوا لك أن تبقى عاطلا لا تفعل شيئا، فإنك تفضل أن ترحل نهائيا عن هذه البلاد.

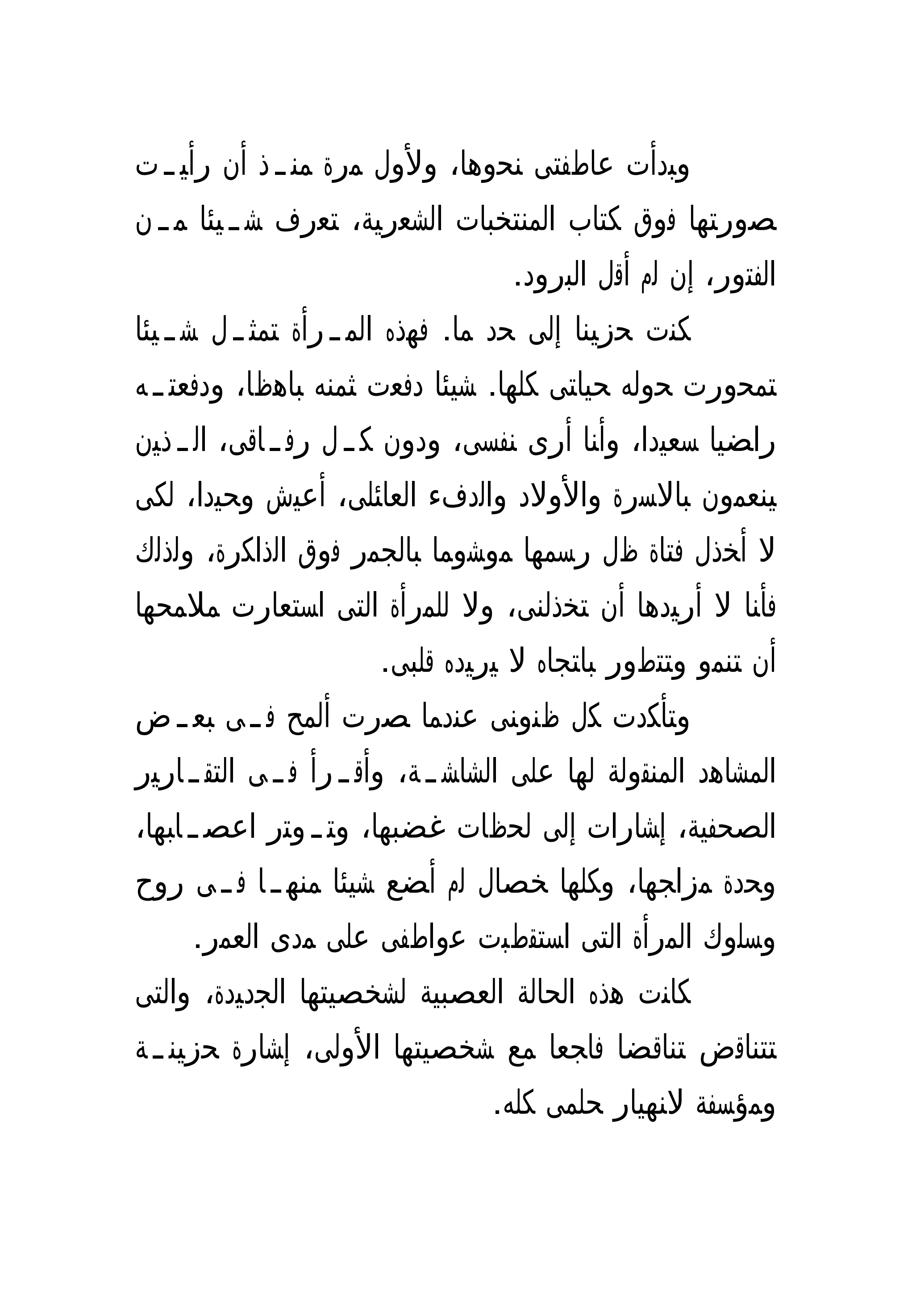
ولم تكن مفاجأة لى، أن أرى الأمير على شاشة التلفاز، يتجه من فوره إلى المنصة، ويعيد قول نفس الكلمات التى قلتها له. لم يدهشنى ذلك، فقد صار هذا التواصل بينى وبينه مسألة لا تثير دهشتى ولا ذهولى.

وفى مكان القلب من هذه الانشطة التى يقوم بها الأمير، والتى تستحوذ على اهتمامى، كانت علاقته بالاميرة ديانا، فكنت اتابع بمشاعر الحب والفرح، صفاء العلاقة الزوجية بينهما، وما يحيط بهما من محبة الناس واهتمام الرأى العام، وأغبط نفسى، لأننى أعيش فى عصر الثورة الإعلامية، التى سخرت وسائلها لرصد حياتهما رصداً دقيقا ودءوبا، وأتاحت لى ان اعرف كل شيء عنهما، وكأننى أعيش معهما صباح مساء. ولأن الأمراء الذين سيعتلون العرش قريبا، يحبون أن تزدهى بيوتهم بأولياء العهد، فقد كنت سعيدا لسعادتهما، ونجاح زواجهما، الذى حبته الأقدار السعيدة بمجيء طفلين على التوالى يكملان صورة العائلة الملكية الهانئة.

ومن خلال المتابعة المستمرة لحياة الأمير والاميرة، بدأت ألحظ شيئا يتصل بالأميرة ديانا، أثار قلقـى. إن تلـك الصبية، العامرة بالنشاط والحيوية، الملائكية الملامح، التـى تضع عينيها فى الأرض حياء وخجلا، قد بدأت تنضج ويطرأ على صورتها تغيير طفيف جاء نتيجة التقـدم فـى العمـر والتجربة. صارت تلك الصبية أكثر جـرأة وهـى تخاطـب الغرباء، ورموش عينيها أكثر ثباتا، ونظرتها التى تسبح فـى الفضاء اللانهائى أكثر تحديدا ومعرفة لما تريد. كنت أعرف جوانب القصور فى نظرتى، والتى مبعثها أن الصورة التـى فى ذهنى لامرأة الحلم صورة ثابتة لا تتغير، أشبه بصـورة نحتفظ بها فى ألبوم الذكريات لإنسان عزيـز. ولهـذا فقـد صرت ألتقط أى تغيير يطرأ على الصورة بشيء من الحذر والخوف، محاولا أن أصل إلى درجة من المصالحة بين واقع الحياة، وبين الصورة المحفورة على جدران الذاكرة. كيـف يمكن أن نحافظ على الحبيبة التى اختارها القلب، كما هى فى نضارتها وحيائها، وبراءة الفراديس التى تسكن عينيها، برغم لعبة الزمن؟.



لقد أقلقنى ما رأيت، وكان أخشى ما أخشاه ان ينتقل هذا القلق الذى أحس به إلى الأمير تشارلز. إننى لا أريد له ذلك. أريده أن يكون أكثر عافية منى، وأكثر وعيا بخطورة هذه الأفكار التى جاءت نتيجة تثبيت ذهنى بعكس نفسية مغدورة، أصابها الأذى من حركة الزمن ودورانه الدائم السريع. ولكن ماذا أفعل لخط التواصل الروحى المفتوح بينى وبينه. يجب أن أحاول السيطرة على مشاعرى مراعاة لخاطره، ولكى لا أظلم حبا نمى وتطور تحت رعايتى. صرت وأنا أقرأ أخبارا عن طردها للعاملين بقصرها، أو أسمع تعليقا قاسيا تنسبه الصحف إليها. أقول إن ذلك لا يمكن أن يحدث لأنه لا يتفق مع صفاء وبراءة الأنثى التى عرفتها من قبل أن تولد، بل ولماذا لا أقول، لا يتفق مع السذاجة الجميلة، التى تميزت بها امرأة أحلامى. وكنت أقول وأنا أرى وجهها المستدير يفقد شيئا من استدارته ليكتسب طولا لم يكن فيه، إن ذلك جاء بسبب الحمل، ثم ينتهى الحمل فأرى أن الاستدارة التى تنتمى لطفولية ملامحها قد انتهت لأنها الآن أصبحت ديانا الزوجة، وديانا الأم، وديانا الأميرة ذات المسئوليات العامة.



وبدأت عاطفتى نحوها، ولأول مرة منذ أن رأيت صورتها فوق كتاب المنتخبات الشعرية، تعرف شيئا من الفتور، إن لم أقل البرود.

كنت حزينا إلى حد ما. فهذه المرأة تمثل شيئا تمحورت حوله حياتى كلها. شيئا دفعت ثمنه باهظا، ودفعته راضيا سعيدا، وأنا أرى نفسى، ودون كل رفاقى، الذين ينعمون بالاسرة والأولاد والدفء العائلى، أعيش وحيدا، لكى لا أخذل فتاة ظل رسمها موشوما بالجمر فوق الذاكرة، ولذلك فأنا لا أريدها أن تخذلنى، ولا للمرأة التى استعارت ملامحها أن تنمو وتتطور باتجاه لا يريده قلبى.

وتأكدت كل ظنونى عندما صرت ألمح فى بعض المشاهد المنقولة لها على الشاشة، وأقرأ فى التقارير الصحفية، إشارات إلى لحظات غضبها، وتوتر اعصابها، وحدة مزاجها، وكلها خصال لم أضع شيئا منها فى روح وسلوك المرأة التى استقطبت عواطفى على مدى العمر.

كانت هذه الحالة العصبية لشخصيتها الجديدة، والتى تتناقض تناقضا فاجعا مع شخصيتها الأولى، إشارة حزينة ومؤسفة لانهيار حلمى كله.

ولكن ماذا عن الرجل الذى رأى هذه المرأة بعينـى، واختارها بقلبى، هل تراه قد تواصل مع المحنة التى أعيشها حتى صارت محنته الشخصية، واكتشف كمـا اكتشـفت، إن هذه المرأة، لم تعد هى ذات المرأة التى تزوجها.

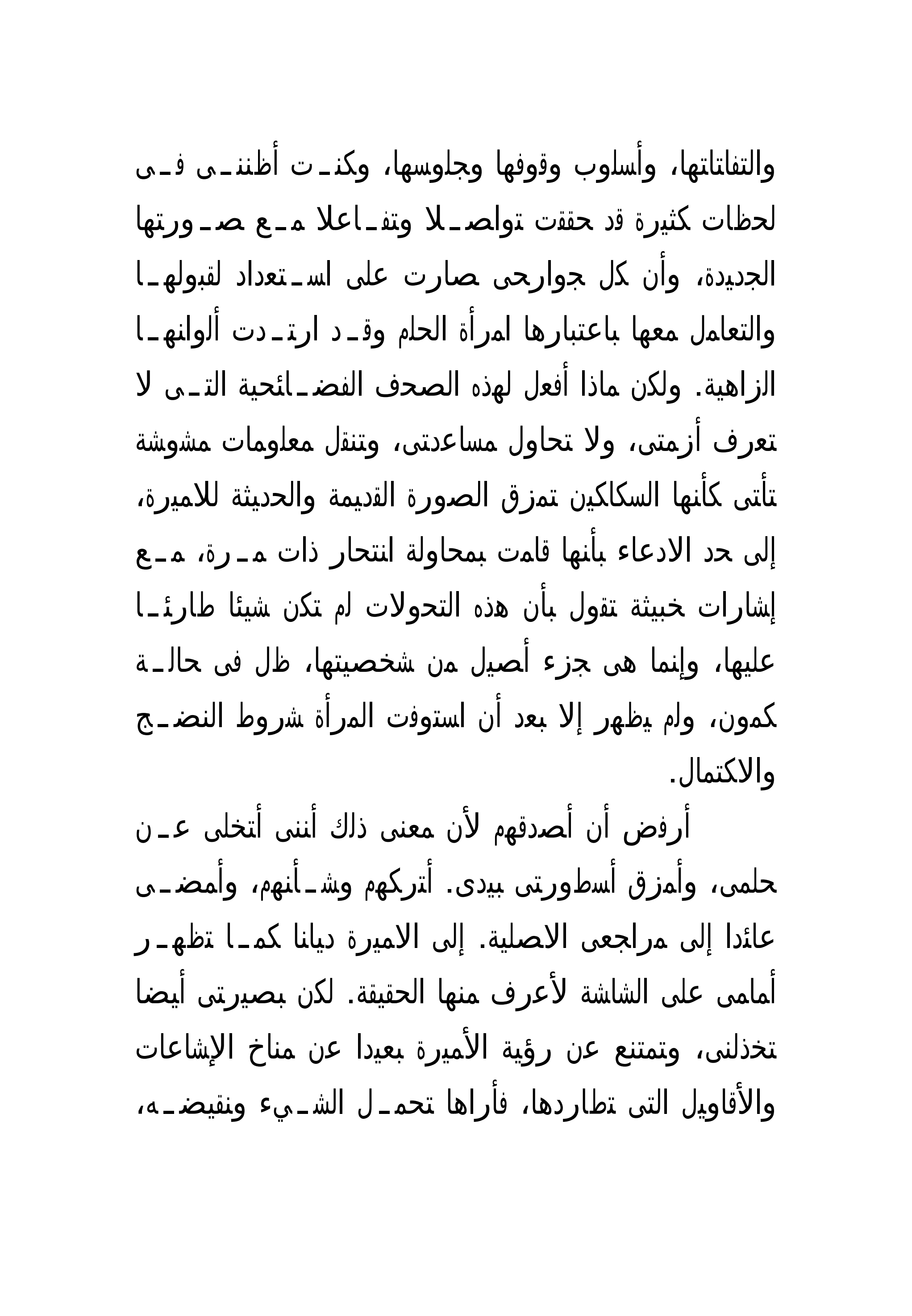
****

وكان طبيعيا بعد ذلك، أن أكون أول من يصدق أنباء الخلافات التى نشأت بينهما، والتى تبارت صحف الإثارة فى نقلها. كانت صحف أخرى تكذبها، وكان الأميـر والأميـرة ينفيانها، ولكننى كنت على يقـين كامـل مـن حـدوثها، لا يراودنى أدنى شك فى أن ما توقعته قد حدث، وما أحسسـت به من ألم ومرارة، قد نقلته حمائم الروح، ووضعته بكاملـه فى صدر الأمير.

كنت مسئولا مسئولية كاملة عما حدث. أعرف يقينـا أن هذا الخلاف ما كان له أن يكون، وما كـان للأميـر أن يتحول عن حبه لزوجته، لو لم أكن مسرفا فـى عـاطفتى، سجين حالة التثبيت النفسى، التى بالغت فـى تصـوير هـذا التغيير الذى طرأ على طباع وسلوك الأميرة. إننى الآن أهدم حياة زوجية لا تهم صاحبيها الاثنين فقط، وإنما تهم ملايـين

الناس، رجالا ونساء، تعلقت قلوبهم بهما، وجعلوهمـا مثـالا يحتذونه فى الحياة. وكنت وأنا ألوم نفسى، أقول لها، بأننى لو تنازلت قليلا عن تصوراتى المسبقة، وحاولت أن أتواءم مـع حركة الزمن، وسعيت لأن أستجيب لقوانين التغير والتطـور لوصلت إلى حل لهذه المشكلة. إذ ما ذنب الأميرة ديانـا إذا كانت بشرا كسائر الناس، يطرأ عليها ما يطرأ علـيهم مـن تغير وتحول وتقدم فى العمر. إنها ما تزال بالغـة الجمـال، يافعة الروح والجسد، فلماذا أحتفظ لها فقـط بصـورة ذلـك الغلاف، وأرفض أن أرى الألوان الجديدة التى أضفت بهـاء على بهاء الصورة. وكنت على يقين بأن محاولة كهـذه لـو نجحت لأنقذت هذا الزواج من المصير الحزين الذى يتجـه اليه.

قضيت أياما كثيرة بعد ذلك، لا أفعل شـيئا سـوى قراءة التقارير الصحفية، وتقليب الصور التى نشرت حـديثا للأميرة، ومشاهدة الأشرطة المرئيـة التـى تنقـل نشـاطها ورحلاتها، لاقترب اقترابا حميما مـن صـورتها الجديـدة، وأسعى بجماع عقلى وقلبى لفهمها واستيعابها، بما فى ذلـك مزاجها العصبى، واستقلال شخصـيتها وجـرأة نظراتهـا



والتفاتاتها، وأسلوب وقوفها وجلوسها، وكنت أظننى فى لحظات كثيرة قد حققت تواصلا وتفاعلا مع صورتها الجديدة، وأن كل جوارحى صارت على استعداد لقبولها والتعامل معها باعتبارها امرأة الحلم وقد ارتدت ألوانها الزاهية. ولكن ماذا أفعل لهذه الصحف الفضائحية التى لا تعرف أزمتى، ولا تحاول مساعدتى، وتنقل معلومات مشوشة تأتى كأنها السكاكين تمزق الصورة القديمة والحديثة للاميرة، إلى حد الادعاء بأنها قامت بمحاولة انتحار ذات مرة، مع إشارات خبيثة تقول بأن هذه التحولات لم تكن شيئا طارئا عليها، وإنما هى جزء أصيل من شخصيتها، ظل فى حالة كمون، ولم يظهر إلا بعد أن استوفت المرأة شروط النضج والاكتمال.

أرفض أن أصدقهم لأن معنى ذلك أننى أتخلى عن حلمى، وأمزق أسطورتى بيدى. أتركهم وشأنهم، وأمضى عائدا إلى مراجعى الاصلية. إلى الاميرة ديانا كما تظهر أمامى على الشاشة لأعرف منها الحقيقة. لكن بصيرتى أيضا تخذلنى، وتمتنع عن رؤية الأميرة بعيدا عن مناخ الإشاعات والأقاويل التى تطاردها، فأراها تحمل الشيء ونقيضه،

البساطة والتعقيد، العنف والبراءة، أنجما يعفرهـا التـراب، وشمسا يطاردها الظلام، وزهرة ملكية تغمرهـا عواصـف الثلج، وتغمر معها شعلة الحب التى أضاءت لى عتمة القلب. وأرى نفسى متأزما مريضا غير قادر على فهم واستيعاب ما حدث. إن هناك شيئا فى الدنيا، شيئا قاسيا وبذيئا، يمنع طائر السعادة من أن يغرد على الدوام، ويمنع زهرة الحب من أن ترسل أريجها على مدى الدهر.

وفى لحظة توتر ويأس، رميت الصحف والأشرطة، وأقفلت التلفاز، وقررت أن أنفض يدى من الأمر كله.

كنت أعرف أننى بهذا العمل قد وصلت نهاية الشوط، وأننى مرغما أحكم على هذه العلاقة بالمصير الفاجع الـذى هو الفراق. مدركا أننى سأعيش ما تبقى من عمرى أحمـل آثامى معى، لأننى فشلت فى إنقاذ هذا الحب من الدمار.

فمعذرة أيها الصديق تشارلز

ومعذرة أيتها الأميرة الجميلة التى ما تزال صورتها القديمة، مرسومة فوق صحائف القلب.

تقنيات القصة القصيرة لدى أحمد إبراهيم الفقيه

سلطة الخيال التعزيمية

دراسة نقدية بقلم الدكتور صبرى حافظ

إنه من أكثر كتاب القصة الليبية تطوراً، ومن أقدرهم على تجاوز إنجازاته باستمرار، والإسهام بهذا التجاوز الدائم فى إثراء القصة العربية والإضافة إلى مغامراتها الحديثة، وخاصة فى أعماله الأخيرة التى يقتحم فيها آفاقاً فنية ومضمونية جديدة، ويضرب بها فى أرض بكر تقع على تخوم الواقع والحلم، وتنحت قسماتها من أديم الخيال، وتؤهله لأن يكون نسيجاً وحده فى عالم القصة العربية

يحتل أحمد إبراهيم الفقيه مكانة متميزة فى لوحة القصة الليبية الحديثة. ليس فقط لأنه من أبرز كتاب هذا الجنس الأدبى فى ليبيا، وأخصبهم موهبة، وأغزرهم إنتاجاً وأكثرهم حضورا فى الواقع الأدبى العربى، وليس أيضا لانه من الكتاب الليبيين القلائل الذين درسوا القصة الليبية وحاولوا بلورة رحلتها المتميزة مع النضج وتتبع مسارات المؤثرات

التى شاركت فى صياغة شخصيتها الخاصة. ولكن أيضا لأنه من أكثر كتاب القصة الليبية تطوراً. ومن أقدرهم على تجاوز إنجازاته باستمرار، والإسهام بهذا التجاوز الدائم فى إثراء القصة العربية والإضافة إلى مغامراتها الحديثة، وخاصة فى أعماله الأخيرة التى يقتحم فيها آفاقاً فنية ومضمونية جديدة، ويضرب بها فى أرض بكر تقع على تخوم الواقع والحلم، وتنحت قسماتها من أديم الخيال، وتؤهله لأن يكون نسيجاً وحده فى عالم القصة العربية المترامى الأطراف والمحتشد بالأصوات المتداخلة والمتشابهة التى لا يضيف معظمها الكثير إلى وجدان القصة العربية أو حتى إلى رقعة عالمها الفنى.

لكن أهم الأسباب التى تطرح أحمد إبراهيم الفقيه بقوة كممثل للقصة الليبية على الساحة العربية هى هذا التناظر الشائق بين رحلة الفقيه الادبية ومسيرة القصة الليبية مع النضج والتطور. فقد ولد أحمد إبراهيم الفقيه فى الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩٤٢ فى مزدة، وهى مركز صحراوى يقع على مشارف الصحراء الليبية، أو الصحراء العربية الكبرى، إلى الجنوب من طرابلس العاصمة. فى هذا

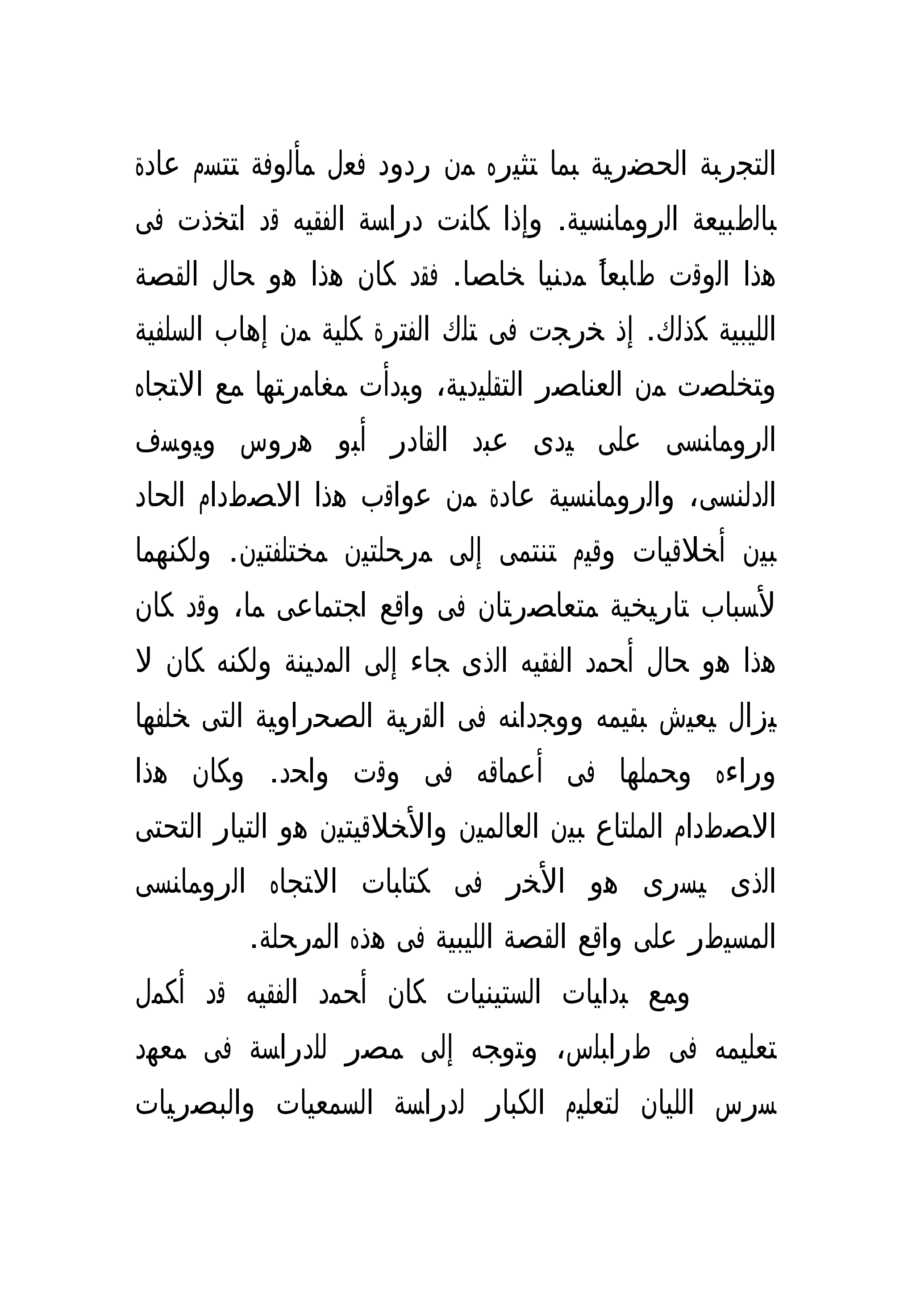
الواقع الرابض على حدود الصحراء. القريب فى الوقت نفسه من أكبر المدن الليبية، والذى يجمع إلى سمات ليبيا الصحراوية بعض ملامح عاصمتها الحضرية واد قصاصنا. وكان عام ميلاده هو على وجه التقريب عام اكتمال مرحلة الميلاد والتبلور بالنسبة للقصة الليبية التى بدأ مخاضها الطويل قبل ميلاده بسبع سنوات فى مجلة (ليبيا المصورة) على أيدى وهبى البورى عام ١٩٣٥، واستمر هذا المخاض القصصى عبر أعمال أحمد راسم قدرى والذى كان يوقع كتاباته باسم »قاسم فكري« وهو الاسم الذى زاوج فيه بين اسمى قاسم أمين وفكرى أباظة ليعلن من خلال المزاوجة بنوته الفكرية لآراء قاسم أمين التحررية، ولدعوته الرائدة لتحرير المرأة، وتأثره بأسلوب فكرى أباظة الرشيق. وروحه المداعبة الساخرة فى كتابة الصور القلمية ورؤية العالم.

ولا يقتصر التناظر بين حياة أحمد إبراهيم الفقيه ومسار القصة الليبية على تعاصر مرحلة الميلاد، ولكنه يتجاوزها إلى طبيعة المكونات، ورحلة التطور معاً. فقد كان جد احمد الفقيه الأكبر فقيها للقرية. وهذا هو مصدر الاسم نفسه " الفقيه " ولذلك كان من الطبيعى أن يتلقى أحمد تعليمه

الأول فى " الزاوية " وهى المعادل الليبى للكُتاب المصرى الشهير، ليس فقط لأن جده كان شيخا للزاوية، ولكن أيضا لأن نشأة أحمد فى تلك البيئة شبه الصحراوية لم تتح له غير ذلك النوع من التعليم التقليدى. ومن هنا فإن ثقافته الأولى كانت هى الثقافة التقليدية التى نهلت من منابعها بدايات القصة الليبية والعربية على السواء من ولع بالمقامات إلى شغف بالمفارقات التى كانت تمثل جل الحس الدرامى أو القصصى فى الادب التقليدى، الشفهى منه والمكتوب، إلى اهتمام بجزالة اللغة ولو تحقق ذلك على حساب الإقناع القصصى، إلى غير ذلك من خصائص البدايات الأولى الواقعة فى براثن القص التقليدى. كما أن أحمد قد ولد لا فى أسرة بدوية حتى تكون اهتماماته الأسرية بعيدة عن مشاغل المدينة التى ارتوت منها تيارات القص الحديثة، وإنما فى أسرة ذات علاقة وثيقة بالمدينة وإن كانت لا تزال ضاربة جذورها فى أرض البادة الصحراوية. فقد ورث الابن الأكبر (أى عم أحمد) عن الجد مهنته، أما الابن الذى قدر له أن ينجب كاتبنا فقد أصبح صاحب دكان فى مزدة. وهذا يعنى أنه دكان من النوع الشامل الذى يبيع كل ما يحتاج اليه أهل

البلدة، من شاى وسكر، إلى أقمشة الملابس والأكفان وحاجيات الأصحاء والمرضى على السواء.... ومن هنا اتصلت أسباب أحمد بالمدينة منذ نعومة أظافره. إن لم يرها فى البداية فقد كان يسمع أخبارها منذ تفتح وعيه عبر عينى الأب الذى كان يذهب إليها لتجارته. والمدينة هى العالم الآخر المختلف الغريب الساحر المليء بالحكايات المحفوف بالمخاطر. وهو عالم الاكتشافات والعجائب والإمكانات الهائلة، وهى جميعاً من الخصائص الضرورية للتربية القصصية أو للإعداد للدخول فى عالم الكتابة باهتماماته الحضرية.

وما إن أكمل أحمد تعليمه التقليدى ثم انتقل إلى طرابلس عام ١٩٥٧ ليواصل دراسته فى تلك المدرسة الجديدة التى أسستها منظمة اليونسكو فى طرابلس والتى كانت تسمى ـ ولمثل هذا الاسم سحر على الأب الذى مارس التجارة كل حياته ـ " المركز التجارى الفني " حتى كانت القصة الليبية قد أكملت هى الأخرى مرحلة الدوران فى فلك الحكايات التقليدية عند زعيمة البارونى وعلى مصطفى المصراتى وغيرهما.. وشرعت فى التعامل مع شتى أبعاد



التجربة الحضرية بما تثيره من ردود فعل مألوفة تتسم عادة بالطبيعة الرومانسية. وإذا كانت دراسة الفقيه قد اتخذت فى هذا الوقت طابعاً مدنيا خاصا. فقد كان هذا هو حال القصة الليبية كذلك. إذ خرجت فى تلك الفترة كلية من إهاب السلفية وتخلصت من العناصر التقليدية، وبدأت مغامرتها مع الاتجاه الرومانسى على يدى عبد القادر أبو هروس ويوسف الدلنسى، والرومانسية عادة من عواقب هذا الاصطدام الحاد بين أخلاقيات وقيم تنتمى إلى مرحلتين مختلفتين. ولكنهما لأسباب تاريخية متعاصرتان فى واقع اجتماعى ما، وقد كان هذا هو حال أحمد الفقيه الذى جاء إلى المدينة ولكنه كان لا يزال يعيش بقيمه ووجدانه فى القرية الصحراوية التى خلفها وراءه وحملها فى أعماقه فى وقت واحد. وكان هذا الاصطدام الملتاع بين العالمين والأخلاقيتين هو التيار التحتى الذى يسرى هو الأخر فى كتابات الاتجاه الرومانسى المسيطر على واقع القصة الليبية فى هذه المرحلة.

ومع بدايات الستينيات كان أحمد الفقيه قد أكمل تعليمه فى طرابلس، وتوجه إلى مصر للدراسة فى معهد سرس الليان لتعليم الكبار لدراسة السمعيات والبصريات

ببعثة من اليونسكو.. وقد رافقت هذه الرحلة بدايات الفقيه الأدبية من ناحية، ودخول القصة الليبية فى مرحلة جديدة من ناحية أخرى. كانت الستينيات أو بالأحرى بدايات الستينيات هى مرحلة الصعود القومى الذى لعبت فيه مصر دوراً رئيسياً. وكانت أيضا مرحلة وضوح الرؤى وتحدد قسمات الحلم القومى العريض، والإيمان الراسخ المتين بالذات الوطنية والعربية، وكان لا بد أن تنفتح القصة الليبية فى هذه المرحلة على القصة المصرية وأن تتأثر بأهم كتابها فى هذه الفترة وهو يوسف إدريس الذى وقع أحمد الفقيه، كغيره من الكتاب العرب فى هذا الوقت، تحت تأثيره الكاسح لفترة غير قصيرة، بل وكان من الطبيعى أيضا أن تبدأ القصة الليبية برمتها فى استيعاب مغامرة القصة بالمشرق عامة وفى مصر خاصة، وأن يقع كثير من كتابها تحت تأثير التيار الواقعى الذى اجتاح القصة العربية حينئذ فغير لغتها، وبدل منظورها للعالم وللشخصيات، وأثر على طريقة تناولها لمادتها. ومعالجتها للأحداث والجزئيات. وطور أدواتها الفنية وأساليبها فى صياغة مادتها ورسم شخصياتها، وقد بدأ كتاب القصة الليبية فى استيعاب هذا الاتجاه الواقعى الجديد الذى

تجسد على الصعيد الليبى فى كتابات كامل مقهور وخليفة التكالى وبشير الهاشمى وصادق النيهوم وإبراهيم الكونى وبدايات أحمد الفقيه القصصية التى كان يحاكى فى الكثير منها أسلوب يوسف إدريس ويطمح إلى بلورة المعادل الليبى لعالمه المغرق فى المصرية.

والواقع أن هناك أكثر من وجه شبه بين يوسف إدريس وأحمد الفقيه، ليس فقط لأن كلا منهما طلع من أعماق شعبه، واستشعر أدق خصائص هذا الشعب. وحاول أن يخلق لها المعادل القصصى الذى يحولها إلى فن أدبى جميل.. ولكن أيضا لأن كلا منهما عمل بالصحافة فى بداية حياته، فربطته الصحافة بالإيقاع اليومى للحياة، وأبعدته عن تقعر الأدباء المعزولين فى أبراجهم العاجية. إذ عمل أحمد الفقيه فى الصحافة الليبية عقب عودته من مصر، وواصل فى الوقت نفسه كتابة القصة وسط صعود مد التيار الواقعى فى القصة الليبية. فصدرت مجموعته الأولى (البحر لا ماء فيه) عام ١٩٦٥ حاملة الكثير من سمات هذا الاتجاه.. ثم أعقبتها مجموعته الثانية (اربطوا أحزمة المقاعد) عام ١٩٦٨. لكن المجموعة التى وضعت أحمد الفقيه بقوة واقتدار

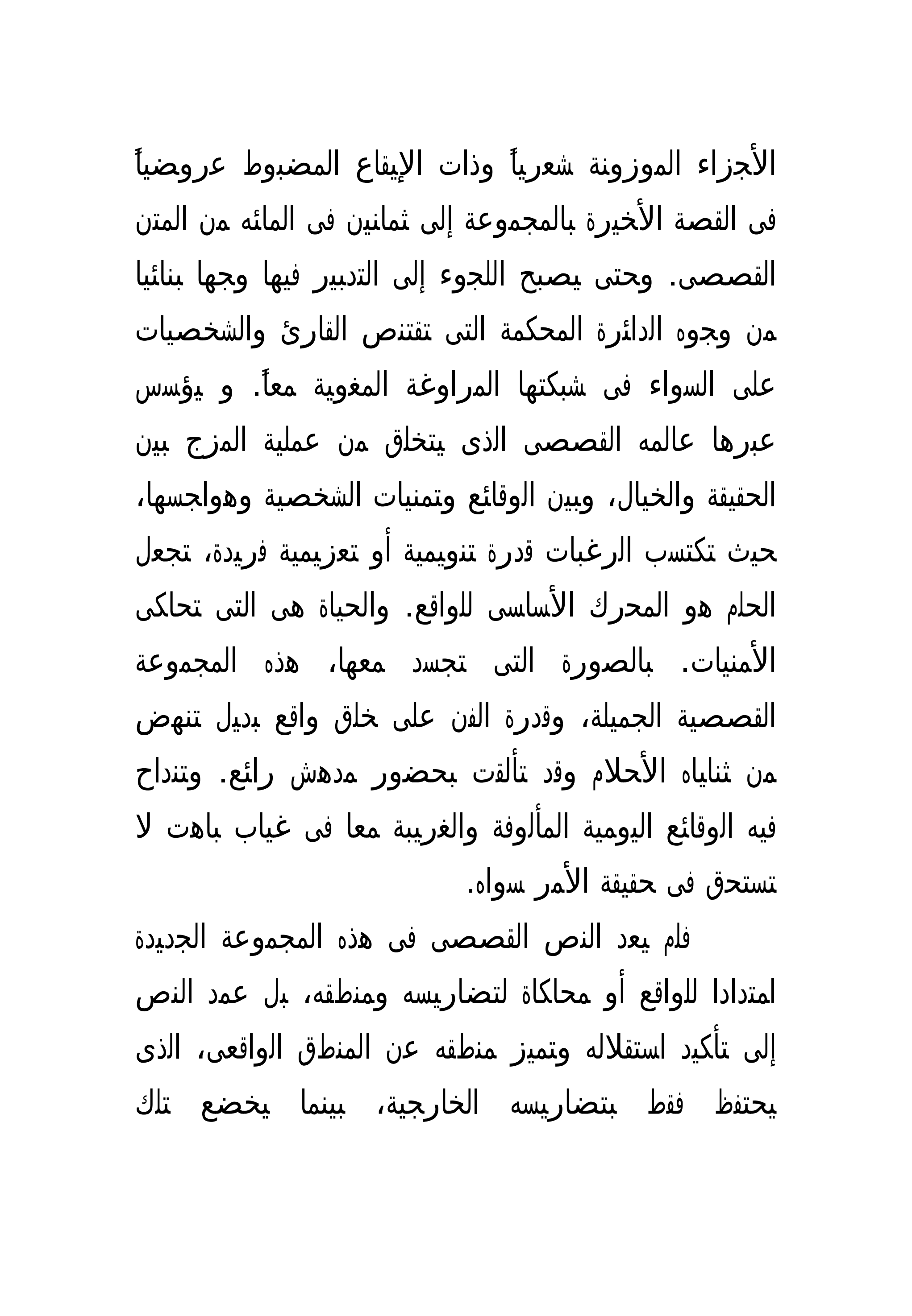
على خريطة القصة العربية كانت مجموعة (اختفت النجوم فأين أنت) التى صدرت عام ١٩٧٤. وهى أكثر مجموعات هذه المرحلة الواقعية نضجاً وأحفلها بالبعد النفسى للشخصيات. ولا غرو فقد صدرت هذه المجموعة فى الوقت الذى أخذ فيه التيار النفسى فى القصة الليبية فى التبلور، وخاصة فى كتابات عبد ا القويرى وخليفة حسين مصطفى وغيرهما من كتاب هذه الفترة الجدد.

لكن هذه المجموعة أيضا كانت أكثر مجموعات الفقيه نضجا واكتمالا على الصعيد الفنى المحض. ليس فقط لأنه استطاع أن يبلور فيها موقفا فكريا واضحا من العالم والشخصيات، ولكن أيضا لأنه اهتم فيها بالبناء القصصى على صعيد اللغة القصصية و بنية النص القصصى الدرامية. وقد استفاد الفقيه فى هذا المجال من دراسته للمسرح ولكل عناصر التجربة الدرامية السمعية والبصرية فى مصر، وفى أول معهد للمسرح فى ليبيا بعد ذلك. وكان نضج هذه المجموعة القصصية وقدرتها على تقديم عالم فنى متماسك، وتجربة قصصية قادرة على مخاطبة جمهور أوسع من الجمهور المحلى ذى الاهتمامات المحدودة، ورؤية إنسانية

حية ومقنعة وراء تسمية كاتبنا بيوسف إدريس القصة الليبية. ويبدو أن أحمد الفقيه هو بحق يوسف إدريس القصة الليبية ليس فقط لأنه جسد عنفوان تجربته الواقعية، أو لأنه سبر أغوار النفس البشرية والشخصية الليبية باقتدار واقناع وتمكن، او لأنه استطاع أن يضع القصة الليبية على خريطة القصة العربية. ولكن أيضا لأنه كيوسف إدريس يكتب المسرحية والمقالة إلى جوار فنه القصصى الأثير. فقد كتب أحمد الفقيه مسرحيتين هما (هند ومنصور) ١٩٧٢ و(الغزالات)١٩٨٤. كما كتب العديد من الكتب النقدية والخواطر أو الصور القلمية مثل: (معارك الغد) ١٩٧٥، و(تجيئين كالماء وتذهبين كالريح) ١٩٧٩. و(كلمات من ليلى سليمان) و(الصحراء وأشجار النفط) ١٩٨٠ و(أبناء الماء وأبناء النار) ١٩٨٢، و(بدايات القصة الليبية) ١٩٨٤، و(شوق الأجنحة إلى الرحيل) ١٩٨٥و(البحث عن ليلى العامرية) ١٩٨٧. كما كتب مثله الرواية كذلك لأنه نشر مؤخرا روايته الأولى (حقول الرماد) ١٩٨٦. لكن أهم الأسباب التى تدفعنى إلى دعوته بيوسف إدريس القصة الليبية هى أنه لا يركن إلى دعة إنجازاته القصصية، مهما كانت

أهميتها، وإنما يعمل على تجاوز كشوفه باستمرار، والمغامرة بالقصة فى بقاع بكر وأرض جديدة لم يسمع فيها وقع لقدم ليبية من قبل، وهذا هو ما فعله فى مجموعته الأخيرة (امرأة من ضوء) التى صدرت هذا العام، والتى وضعت أحمد الفقيه بحق بين أبرز كتاب القصة العربية لأنها لا تنطوى على إضافة كبرى للقصة الليبية وحدها، وإنما تعد واحدة من الإضافات الهامة بالنسبة للقصة العربية فى السنوات الأخيرة.

تحتل مجموعة أحمد إبراهيم الفقيه الأخيرة " امرأة من ضوء " مكانة متميزة فى لوحة القصة الليبية الحديثة. ليس فقط لأنها متميزة المذاق، متفردة اللغة والأسلوب، ولكن أيضا لأنها توشك أن تكون المجموعة الليبية الأولى التى تضيف شيئاً جديدا إلى إنجاز القصة العربية القصيرة ككل. ذلك لأن الفقيه يتجاوز فى هذه المجموعة الجديدة مواضعات القص الواقعى التقليدية، واستقصاءات القصة النفسية المكرورة، ليبلور تجربته الفنية الفريدة، وإسهامه المتميز فى القصة العربية، إذ ينفض عن عالمه القصصى فيها كل المؤثرات التى أوهنت من تمايز مجموعاته السابقة، ويبدع بها لغته ومفرداته، التى تقترب من تخوم الشعر حتى تصل



الأجزاء الموزونة شعرياً وذات الإيقاع المضبوط عروضياً فى القصة الأخيرة بالمجموعة إلى ثمانين فى المائه من المتن القصصى. وحتى يصبح اللجوء إلى التدبير فيها وجها بنائيا من وجوه الدائرة المحكمة التى تقتنص القارئ والشخصيات على السواء فى شبكتها المراوغة المغوية معاً. و يؤسس عبرها عالمه القصصى الذى يتخلق من عملية المزج بين الحقيقة والخيال، وبين الوقائع وتمنيات الشخصية وهواجسها، حيث تكتسب الرغبات قدرة تنويمية أو تعزيمية فريدة، تجعل الحلم هو المحرك الأساسى للواقع. والحياة هى التى تحاكى الأمنيات. بالصورة التى تجسد معها، هذه المجموعة القصصية الجميلة، وقدرة الفن على خلق واقع بديل تنهض من ثناياه الأحلام وقد تألقت بحضور مدهش رائع. وتنداح فيه الوقائع اليومية المألوفة والغريبة معا فى غياب باهت لا تستحق فى حقيقة الأمر سواه.

فلم يعد النص القصصى فى هذه المجموعة الجديدة امتدادا للواقع أو محاكاة لتضاريسه ومنطقه، بل عمد النص إلى تأكيد استقلاله وتميز منطقه عن المنطق الواقعى، الذى يحتفظ فقط بتضاريسه الخارجية، بينما يخضع تلك

التضاريس لمنطق مغاير كلية للمنطق الذى اعتدنا سيطرته على حركتها وتحكمه فى إيقاع تغيرها. ويعلن الكاتب عن منهجه هذا فى المقتطف الذى يجعله مفتتحا لمجموعته أو منطلقا لقراءتها عندما يقول: " إننى أرفض الهروب من الواقع بمثل ما أرفض أن أتورط فى محاولة كاذبة لترحيله كما هو، وأنا أعرف أنى لا أستطيع. ولذلك فإنه لا بد من وسيلة أخرى غير هاتين الوسيلتين الاثنتين. ومن هنا بدأت محاولتى للبحث عن الأشياء الخفية وراء الأشياء التى نراها، أن يكون الفن عينا ثالثة، نرى بها الوجود الآخر للأشياء، ذلك الوجود الذى لا نراه بأعيننا، إنه محاولة للكشف عن أسرار هذا الواقع ودلالاته، إن الشيء الذى أراه لا يعنينى فى حد ذاته، ولكن ما يعنينى هو الدلالة خلف هذا الشيء، كما أن الحدث لا يعنينى فى حد ذاته، ما يعنينى هو الدلالة خلف هذا الحدث ".

(من حديث مع أحمد إبراهيم الفقيه أجرته معه مجلة " كل العرب " فى ٢٠ يونيو ١٩٨٤).

لكن تقديم الكاتب لهذا المنهج يكشف عن بعض أسراره الواضحة، ويترك أهم ملامحه وإنجازاته دون كشف

أو توصيف، ربما لأن الكاتب نفسه هو آخر من يقدم لنا وصفاً دقيقا لكل ما ينطوى عليه عالمه الفنى من أسرار وربما لأن العمل الأدبى يتضمن فى نهاية المطاف الكثير من الخصائص والإنجازات التى لم يقصدها الكاتب، والتى تنبثق بشكل عفوى نتيجة لآليات العملية الإبداعية البالغة الكثافة والتعقيد. إذ تكشف لنا قصص المجموعة عن أن الإنجاز الحقيقى لاستراتيجياتها النصية الجديدة، ليس بأى حال من الأحوال الكشف عن أسرار الواقع و »دلالاته« المختفية خلاف تبدياته المتعددة، فهذا ما تحققه كل الاعمال الفنية على مختلف توجهاتها، ولكن اكتشاف البنية العميقة لحركية تعامل الإنسان مع واقعه. ولقدرة الفن على تسيير الواقع من خلال آليات عمليات التقديم والتأخير، والابراز والتشحيب. كما أن الكاتب لم يتخل عن الاستفادة من تكنيك الاعتماد على الخط المباشر بين العين والموضوع فى الوصف، وهو التكنيك الذى يبدو أنه يخلق إيهاما بالواقع، ولكنه يستخدم هذا الأسلوب الذى يرتبط لعقود عديدة بالكتابة الواقعية، ليحقق به مقلوب هدفها، وهو الإطاحة بكل إيهام بالواقع، وايهام علاقة النص به، وتكريس سيطرة الوهم على ما تواضعنا على

تسميته بالحقيقة، والمزج المستمر بين الوقائع والأحلام والأوهام. وهو المزج الذى يبدو لأول وهلة وكأنه شيء مألوف، ولا جدة فيه على مستوى من المستويات، ولكن طريقة تناول الفقيه الفريدة هى التى تكسبه جدته، حيث تتجسد أفكار الشخصيات وأحلامها ورغائبها، وقد اكتسبت قدرة تنويمية أو تعزيمية فريدة، تجعل الحلم يحرك الواقع ويفرض عليه منطق حركته الجديد.

ويلجأ الكاتب إلى مجموعة من الأساليب والمنطلقات الفنية لتحقيق ذلك، ففى أولى قصص المجموعة، وهى قصة العنوان، يجعل مدخله إلى عالمه القصصى لحظة متألقه مقتطعة من ذكريات الطفولة المضمخة بوهج من طقوس العرس البدوى، ونشوة الاكتشاف الحسى الأول. ثم ينطلق من هذا المدخل، ليقدم قصة البحث الأبدى عن المرأة، وعن لحظة الاكتشاف السحرى الأولى لذلك الإحساس الخاص، الذى يمتزج فيه الحب و النشوة، بولوج العوالم الجديدة، باكتشاف المناطق البكر والمحرمة، أو بالأحرى قصة البحث الأبدى عن المستحيل، عن الزمن الضائع المفقود الذى تحتفظ به الذاكرة حيا متوهجا يفوق فى حيويته وفاعليته كثيراً من

العوالم والوقائع الحقيقية. وفى رحلة البحث المضنية تتراكم الخيبات الصغيرة كمحطات متتابعة فى مسيرة العمر، وتكتسب تلك الخيبات الصغيرة دلالات تفوق كثيراً حدود معانيها المباشرة. وكلما عرفت محطات العمر خيبة، هرعت آليات التذكر إلى فراديس الطفولة تستمد من لحظاتها المنصرمة قوة جديدة لمواصلة رحلة البحث الأبدى من جديد. ومن خلال المراوحة الدائمة بين الواقع وزمن الذكريات المنصرم تتخلق مجموعة متراكمة من الدلالات لبطلة القصة " عائشة " التى تتردد عبرها بعض أصداء عائشة الخيام الشهيرة، وقد امتزجت بأمشاج من الصراع الدائر فى أغوار الشرقى دوما بين المرأة الشرقية ذات السحر والمرأة الغربية المتحررة المغوية. وما أن يعثر الشرقى الممزق بين الحضارتين على أحدهما حتى يظل يبحث فى أغوارها عن المرأة الاخرى. وكأنه يتشوق عبثاً إلى جمع النقيضين فى جسد واحد: إلى المزاوجة بين نقاء الطفولة، وتوهج الحس الذى تشتعل شراراته كلما التقى الرجل بأنثاه المبتغاة. لكن استحالة التجربة ويناعتها معا هى التى تترك القصة فى النهاية مشحونة بذلك الألق المترع بالتوتر.

أما القصة التالية " المرأة والكلاب " فإنها تقتنص القارئ فى شبكة تلك اللعبة الحاذقة: لعبة الوهم والحقيقة وقد أوقعت ببطليها قبله فى شباكها المغوية. ولا غرو فالقصة تبدأ بتلك الجملة الحازمة، قررت فى تلك اللحظة أن كل هؤلاء الناس الذين يمتلئ بهم هذا الميدان الكبير.. وكأنها تفرض منذ اللحظة الأولى قرارات الفن على الواقع. وسطوة الوهم على الحقيقة. ومن هنا فإنها لا تصف لنا الميدان كما هو فى الحياة، ولكنها تتكئ على مظهره الوصفى لتقدم لنا ميدانها الصاخب بالحيوات المتوهمة، والقصص المخترعة التى يلفت نظر القارئ منذ البداية الصارمة إلى اختراعها، ويوقعه مع ذلك فى شبكتها التى لا تقل سحراً ونفوذا عن أى شبكة تنسجها الوقائع وتصاريف المقادير. وتختار بين شخصيات هذا الميدان العامر بالناس ذوى القصص المختلفة، تلك المرأة الجميلة التى تخترع القصة أو يخترع الراوى لها كلبا رقيقا تتنزه به. ويدير مع الكلب وصاحبته قصة تردد بطريقتها الخاصة بعض أصداء رائعة تشيكوف الظهيرة " السيدة صاحبة الكلب " لأن العناصر التناصية من الأبعاد الهامة فى هذه القصص، ليس فقط لأنها توسع من أفق الدلالة فيها،

ولكن أيضا لأنها ترهف من حدة الجدل بين أصوات القص المتراكبة فى النص. وتلفت أنظارنا إلى وجود درجة مراوغة من درجات التوحد بين صوت الراوى وصوت القصة، أو الصوت المانح للقص مشروعيته ومصداقيته. والذى يجعل للسرد تلك القوة التعزيمية لأن ما يفرضه ذلك السرد على الوقائع والاشياء هو ما يعيشه الراوى على الفور. وكأن الكاتب ـ وهو غير الراوى وغير صوت القص ـ يريد لنا أن نمتحن مصداقية تلك القوة السردية السحرية من خلال تجسيداتها كوقائع جديدة فى حياة الراوى التى تتدفق أمامنا على الورق. ويصل هذا الامتحان ذروته عندما يقرر الراوى أن يطلق الرصاص على الكلب ويرديه مجندلا فى دمائه. عند هذه اللحظة نحس أن للكلب الوهمى الذى يضحى به على مذابح هذا الإخفاق المر فى لعبة السعى الأبدى إلى التواصل مع المرأة، وجوداً لا يقل حقيقة وصلابة عن وجود أى كلب حقيقى. فنلتاع للإجهاز عليه، وقد اكتسب إلى جانب دلالاته المحددة قوة رمزية كانت السبب فى مصادرة عدد مجلة (الكفاح العربي) الذى نشرت به القصة، ذلك لأن راوى القصة، وقارئها معا، يكتشفان فى عملية التلقى الشائقة، التى

تلتحم فيها فاعلية السرد الداخلية بآليات عملية الاستجابة الأدبية للنص، إن الانسان لا يستطيع دائما التحكم فى الأوهام التى يخلقها، أو فى الأكاذيب التى يمنحها وجوداً وحياة، وإن هذه الاوهام ما تلبث أن توقع به فى قبضتها المحكمة وتتربص به شراً.

لذلك كان من الطبيعى، وللمجموعة بنيتها التكاملية، أن تجسد لنا القصة التالية " المحطة الأخيرة " جانبا من جوانب هذا الشر الذى يحدق بالراوى فى عالم تتمتع فيه الأوهام بقدرة تفوق تلك التى تتشح بها الحقيقة، فما أن يدلف البطل إلى مقصورة القطار فى رحلته التى لا نعرف لها غاية، حتى يجد تلك المرأة الجميلة إحدى العائشات الزائفات اللواتى لا يتكشفن أبدا عن عائشة الحقيقة، وقد اتشحت هنا بمئزرها المليء بالنمنمات، ودست وجهها الساحر فى كتاب سميك تتسلى به طوال الرحلة، وتنشغل به عن العالم من حولها، وتذب به عن نفسها عبث الفضوليين الذين يتسقطون الفرص للحديث مع امرأة جميلة تسافر وحدها فى هذا القطار. ولما لم يكن مع راوينا، وللقصص كلها راوٍ واحد لا يتغير يسردها علينا جميعا بضمير المتكلم وكما وقعت له، أى

كتاب يتسلى به على تحمل مشقة الرحلة الطويلة، فقد شغل نفسه بالتفكير فيما عساه يكون أمر تلك المرأة الجميلة، وما عساها تكون حياتها وترسم له خيالاته حياة مصنوعة من أديم قصص " الوحش والجميلة " التى تولع بالقرآن بين المتناقضات، وتعقد أغرب العلاقات بين منتهى الجمال والرقة، ومنتهى القبح والجلافة الوحشية، وتتمادى به خيالاته حتى تقتحم أدق دقائق حياتها مع هذا الرجل الفظ الذى جعله الرجل الثانى فى عصابة للتهريب، يستعذب تعذيبها، ولا يحلو له أن ينضو عنها ثيابها إلا تمزيقا، ولا أن يأتيها الا عنفا واغتصابا، وهو رجل لا اخلاق له، يشبعها تعذيبا ويحرم عليها مخاطبة الغرباء، ويهددها بالقتل إن هربت منه. ويرسل العسس لتحصى عليها تحركاتها.

وما أن تصل به أفكاره إلى هذا الحد حتى يشفق على المرأة الجميلة. ويشرع فى اختطاط الخطط لإنقاذها من براثن هذا الرجل القبيح، الذى لا يناقضها فى كل شيء فحسب، ولكنه يكبرها كذلك بثلاثين عاماً. وراوينا كما لابد أن خمنت أيها القارئ العزيز، يماثلها عمرا أو هو على الأقل أقرب إليها عمراً وطبيعة. وما أن يعد راوينا الخطط لإنقاذها

فى خياله دون ان ينبس ببنت شفة ويصل فيها إلى حد إيداع هذا الرجل الفظ الذى يتحكم فيها ويعذبها وراء القضبان. حتى تنهض المرأة. وقد ملأها الهول، وتصفعه بعنف على وجهه وهى تصرخ " أيها الندل " ما شأنك أنت بى حتى تأتى بهذه الخيالات المريضة لإنقاذى، من أعطاك الحق فى أن تتدخل فى شئونى، أو تفكر بالنيابة عنى. إنها حياتى، وأنا حرة فيما أفعله بنفسى، ولا تغمر هذه الصدمة الراوى وحده بالذهول، ولكنها تصيب القارئ كذلك بالدهشة وهى الدهشة التى ما تلبث أن تتصاعد حدتها عندما يصل القطار إلى المحطة الاخيرة، ويطل الراوى من نافذته ليجد أن العملاق الذى يناهز الخمسين، والذى رسمه لها فى خياله، برأسه المفلطحة ووجهه القبيح المليء بالنتوءات، والعصابة التى تخفى عينه المفقودة فى إحدى مغامرات العصابة الخائبة، واقف ينتظرها على رصيف المحطة. هنا تتحول الصدمة إلى كشف ويتحول المناخ السحرى القريب من مناخات القصص إلى واقع كابوسى مبهظ، لا تنتهى فيه القصص بالنهايات السعيدة التى تتخلص فيها الحسناء من براثن

الوحش، بل يلقى فيه كل من يحاول أن يعيد للأمور منطقها الطبيعى ويخاص الجمال عامة من القبح، جزاء سنمار.

وهذا أيضا ما نلمس بعض جوانبه فى القصة التالية " شمس الأمهات " التى تتناول جانبا آخر من جوانب هذا الصراع الأبدى بين نوازع التحرر فى الشخصية العربية، وقيود التقاليد التى تشد هذه الشخصية إلى ماضيها، أن رغبة الراوى المثقف فى اختيار شريكة حياته، ومعرفتها بشكل عصرى قبل الزواج، تتعارض مع تصور كل من الأم الراغبة فى تزويجه بطريقتها الخاصة، ومع تقاليد المجتمع وأعرافه الراسخة، لكن ذلك الموضوع الذى يطفو على سطح القصة قديم قدم بدايات القصة العربية، أشبعته مختلف المعالجات القصصية بحثا وتقليبا، أما الجديد هنا فليس طريقة السرد الفريدة وحدها، ولا حتى اللغة القصصية المرهفة، ولكن طرح القضية من منطلق جديد: هو منطلق الإنسان العصرى المسكون، برغم أفكاره الجديدة، بكل أشباح الرؤى والتصورات القديمة. هذا الطرح هو الذى يتيح للفقيه أن يمارس لعبة الجدل المستمر بين الخيال و الواقع، وبين الأوهام التى تسكن الشخصية وتفاصيل الحياة التى تعيشها

بعد أن قررت تحدى التقاليد فى الخارج دون أن تفطن إلى أن التحدى الأكبر كامن فى التغلب على التقليد والتصورات القابعة فى داخل الشخصية لا خارجها، وأن وهم الحرية غير عملية التحرر الحقيقى الصعبة والمعقدة. ومن هنا تكتسب نهاية القصة المرة وقعها الأليم على القارئ والشخصية على السواء عندما تضيق تلك التقاليد الداخلية الخناق عليه وتضعه على حافة الجنون بعد أن سلطت عليه جحافل أوهامها، فيستسلم لما تمليه عليه من انصياعية قاسية مبهظة، لا سبيل للفكاك منها غير الجنون. ولا مفر إذا ما رغب فى تحديها من جنون من نوع آخر.

لكن ترى هل الجنون أكثر سوءا من هذا الإذعان الرهيب؟ هذا ما تسعى القصة التالية " الجنون " إلى الإجابة عليه، لأنها تطرح علينا آليات الجنون وقد بدأت فى التخلق من موقف مستحيل مشابه: موقف انفتاح الأفق للحظة أمام الشخصية ثم انغلاقه مرة أخرى أمام عينيها من جديد: موقف أن يلوح الحلم أو الأمل فى الخلاص أمام الانسان، لكنه ما يلبث أن ينتزع منه لأسباب غبية ومفارقات غير مفهومة، فما أن لمح راوينا، " فرح " التى لا بد ألا تخفى علينا دلالات

اسمها، وقد صيغت من هذا المزيج العذب من أحلام الطفولة وصبوات الشباب حتى توهم أن العالم قد أخذ يبتسم له، وحتى سرى تيار من التواصل الداخلى بينه وبين حلمه المبتغى »فرح« ويعيش عدة أيام وقد امتلأ بالحياة، وأخذت تتفجر فيه طاقات الخلق والتواصل والإبداع. لكن " فرح " المبتغاة، وقد جاءت إليه فى الموعد المضروب عبر تيار التفاهم الداخلى الدفين، ما تلبث أن تمنعها الروادع والتدخلات الغبية من الاتصال به إلى الأبد، فيسقط فى هاوية الجنون السحيقة: جنون الحرمان من التواصل. والبقاء فى صحراء العزلة والحصار. يعانى من الاغتراب وهو لم يزل بعد فى وطنه، ولذلك ليس غريبا أن تقل وطأة عزلته واغترابه عندما يغادر بلده. ويلتقى بهذا " الرجل الأيرلندي " تلك الشخصية الساحرة و الساخرة معا والتى تهب اسمها عنوانا للقصة التالية التى توشك ان تكون تكملة للقصة السابقة تريد ان تخلص بطلها من نير الجنون وناره الموقدة. ذلك لأن الرجل الأيرلندي تعد فى مستوى من مستوياتها دراسة فى آليات الأغراب والتواصل. فى الوقت الذى تتناول فيه شخصيات

المدن وطرائقها المختلفة فى التعامل مع الغرباء من أبنائها ومن أبناء المدن الأخرى معا.

أما آخر قصص هذه المجموعة وهى " رسالة اعتذار إلى ليلى من رجل لم يعرف كيف يحب " فإنها القصة التى تسعى إلى موضعة عالم المجموعة فى واقعة السياسى والاجتماعى والتاريخى، دون مفارقة منهجها الأثير فى إكساب كل مقولاتها العامة بعدا شخصيا ونفسيا، بل وذاتيا. لكن تصريحها الافتتاحي: " إنى أحبك، إنى أحبك، لكنى رأيتك حين دخول جيوش الروم إلى القدس العربية تبتسمين، كنت أدارى خجلى وأمسح عن ثوبى دما يتدفق من صدري " يطمح إلى وضع عالم المجموعة ككل فى واقعة الحضارى والتاريخى، واقع سنوات ما بعد الهزيمة، وسقوط القدس العربية فى أيدى الصهاينة أعداء الأمة العربية الألداء. ويسعى أيضا من خلال التركيز على عنصر الإيقاع الشعرى. ووزن معظم أجزاء هذه القصة عروضيا، إلى اضفاء وضع خاص على هذه القصة باعتبارها الحركة الأخيرة فى معزوفته القصصية. بحيث أننا لو حذفنا أدوات

العطف من كثير من أجزائها وأجرينا بعض التحويرات البسيطة فيها، لوجدنا أننا بإزاء نص موزون عروضيا.

ويلعب الشعر، بتميزه المتعمد عن اللغة النثرية العادية التى يلفنا كتابة القصة بها مجموعة من الأدوار الأساسية: أهمها إثراء الدلالات وتعدد مستويات المعنى، وما يمكن تسميته بعملية التغريب التى تقصد كسر آليات الإيهام بالواقع أو التوحد مع الشخصيات، ومنها إبراز اختلاف اللغة وبالتالى الموقف. عن اللغة اليومية والموقف الواقعى. وهذه كلها من الوظائف الضرورية بالنسبة لهذه القصة خاصة، وللمجموعة ككل، ليس فقط لربط كل عالمها الخيالى والحلمى بالواقع أو الإطار المرجعى الذى صدر عنه، ولكن أيضا لتحقيق ما يمكن تسميته بصدمة التنبيه فى نهاية المجموعة. حيث يدرك القارئ من خلال هذه المعزوفة القصصية الجميلة عن ضياع فلسطين، وعن مسؤليتنا عن هذا الضياع، وبالتالى عن ضرورة العمل على تخليص تلك الأرض العربية الجميلة من الأسر، إن لكل قصص المجموعة مشاغلها السياسية، وأن الجانب البادى فى تلك النصوص القصصية الشائقة، ليس إلا أحد مستويات المعنى فيها أو أحد

وجوه الدلالة، لأن وراء هذا الجانب الذاتى الذى يبدو فيه الكاتب مشغولاً بقصص الحب ومغامرات البحث عن المرأة المثال، مجموعة كبيرة من الهموم السياسية والقومية التى لا تخفى تفاصيلها على القارئ الفطن الليبى.. ذلك لأن هذه القصة الهامة تلفت الانتباه إلى مجموعة من المحاور الأساسية فى تجربة هذه المجموعة القصصية. إذ تكشف لنا عن أهمية الالتفات إلى تغير الوجوه دون أن ينطوى هذا التغير فى الواقع على أى تغير حقيقى. فقد تتابعت عساكر الروم والفاشية والصهيونية وامريكا على وجه الأمة العربية دون أن يؤدى هذا التتابع إلى أى تغير حقيقى فى جوهر حالة الاستلاب التى تعانى منها حبيبته العربية »ليلي«، أو يوهن من مسؤلية بنيها الذين لم يعرفوا كيف يحبونها فيحول حبهم ذلك بينها وبين السقوط.

عن صحيفة العرب - لندن - ١٩٨٧/١١/٣٠

(١)

الطفل الذى أضاف غابة إلى خريطة الوطن

جلس الطفل إلى مقعده فى أحد الأيام التالية للعدوان الأمريكي، يرسم خريطة الوطن العربي.

رسم بحرا كما كان يفعل قبل العدوان ورسم جبلا كان دائما يرسمه فوق الخريطة ورسم شجرة نخيل مثقلة بعراجين البلح، كما تعلم أن يرسمها قبل العدوان.

ورسم شمسا وسماء، ومسجدا له مئذنة طويلة تعانق الأفق، بمثل ما كان يفعل قبل العدوان.

انتهى الطفل من رسم الخريطة، ولكنه ظل يتأملها حائرا وكأن هناك شيئا ناقصا نسى أن يرسمه.

تذكر الشيء الذى نسيه.

وفى حماس شديد أمسك القلم وأضاف إلى خريطة الوطن شيئا جديدا لم يرسمه من قبل، أضاف الطفل إلى الخريطة غابة كثيفة من الصواريخ.

(٢)

الطفل والبيت القتيل

فى طريقه إلى المدرسة مر الطفل بأنقاض بيت هدمته قنابل الأمريكان..

انهارت شرفات البيت وتهدمت الواجهة وطار خشب النوافذ وزجاجها ولم يبق من البيت إلا أعمدة وأسقف وبقايا جدران وأكوام كثيرة من الركام والأنقاض.

رآه اليوم مظلما خاليا من الحياة وحركة البشر وضجيجهم غارقا فى الصمت والكآبة والخراب كجثة إنسان قتيل.

لم يكن يعرف إن كان أحد من أهل البيت قد استشهد، ولم يكن يعرف أحدا من الأطفال الذين يسكنون هذا البيت.. ولكن يعرف أنه كان بيتا عامرا بالحياة، ولا بد أنه كان يضم أسرة كأسرته، أم وأب وأبناء وبنات.

نساء ورجال وأطفال وشيوخ جديرون بأن يملئوا بالحياة بيتا كبيرا شاسعا كهذا البيت.

إن شيئا مريعا قد حدث تلك الليلة، أحال البيت الى هذه الخرابة الموحشة الكئيبة، شيئا مخيفا مرعبا قتل الحياة فى هذا البيت.

إنه يعرف الآن أن الذين فعلوا ذلك هم أناس يكرهون الحياة، يكرهون البيوت العامرة المضيئة، يكرهون الآباء والامهات ويكرهون الأطفال.

دمعت عيناه..

وقرر بينه وبين نفسه أنه عندما يكبر سوف يأخذ طائرة مليئة بالقنابل ويذهب ليرمى بها فوق بيوت أولئك الذين هدموا هذا البيت وطردوا منه الحياة.

(٣)

ريجان.. قاتل الأطفال

غابت " رشا " عن الحضور الى المدرسة فى اليوم التالى لأيام العدوان الأمريكى

انتظرت " حنان " أن ترى زميلتها تأتى وتجلس فى المقعد المجاور لها كما تعودت أن تفعل كل يوم. لقد استعارت من " رشا " كراسة الرسم لكى تأخذها إلى أمها ووالدها وتريهما كيف تجيد " رشا " رسم الزهور والفراشات وأعشاش الطيور، وقد أعادتها اليوم إليها، فما بالها لا تأتي!

وعندما تأخرت طويلا سألت عنها مدرسة الفصل التى أخبرتها بأن " رشا " قد ذهبت الى مكان بعيد. ذهبت ولن تعود. سألت حنان المدرسة عن المكان الذى ذهبت إليه " رشا "، ألحت فى السؤال حتى عرفت أن " رشا " كانت هى أيضا من ضحايا قنابل الطائرات التى أرسلها رجل اسمه " ريجان " تهاجم بيوت الليبيين.

ماتت " رشا " إذن، وماتت بموتها الزهور والفراشات وأعشاش الطيور.

حزينة جلست " حنان " تنظر إلى المقعد الفارغ بجوارها ودفتر الرسم بين يديها، وتنهمر فى البكاء، تصورت " ريجان " كائنا من كائنات الخرابات يجلس فى ظلام الخرابة، ومن حوله أعداد لا حصر لها من خفافيش الظلام، وأمامه صخرة يشحذ عليها سكينة كبيرة أعدها لقتل الأطفال، وعندما يأتى الليل يرتدى عباءة سوداء وينشر ذراعيه، فتصبح العباءة كأجنحة خفاش كبير يطير بها فى الهواء، ويأتى إلى المدن متخفيا بالظلام ليهاجم الأطفال الذين ينامون فى أسرتهم، يستل من عباءته السكين ويقوم بقتلهم.

عادت " حنان " إلى البيت وهى لا تزال تبكي. ذهبت مسرعة إلى غرفتها. أقفلت على نفسها الباب. مسحت دموعها وأخرجت كراسة الرسم التى استعارتها من " رشا "، وأخذت القلم تكتب رسالة إلى ا تخبره فيها بأن "ريجان " هو الذى قتل صديقتها " رشا " صاحبة هذه الكراسة التى تجيد رسم الزهور والفراشات وأعشاش الطيور، وتسأل باسم كل الأطفال أن يحمى أطفال العالم من " ريجان " قاتل الأطفال.

جرعة ماء

فى غبشة المساء رأيته... شبح رجل ترتفع به الأرض وتنخفض.. حيناً أراه كاملاً وحيناً يظهر رأسه فقط... وحيناً يختفى عن نظري..

أسرعت الخطى ...

لكن السحب تعبر فوق رأسى عبوراً بطيئاً.. تزحف على بطونها... وتملأ بون السماء الشاسع، بضجيج الصمت.

كنت أفكر فيما إذا كان الرجل قادماً نحوي... ليس لدى ما أقدمه له.. فنبتات الشيح من حولى ذابت أوراقها. شجيرات الرتم التى كنا نستظل بظلها صارت أعواداً يابسة.. الأرض صفراء، صفراء مريضة لا تعد بشيء وإحساسى أيضاً أصفر لا يعد بشيء.. فالأشجار اختفت بعد أن حولها الناس إلى فحم..

اقترب الرجل...

كان واضحاً إنه قادم فى اتجاهي. تحفزت للمعركة ومددت يدى إلى البندقية.. وفتحت جهاز الأمان..

انتهى الحصاد وها أنذا عائد، جمعنا السنابل فى نادر كبير، درسناه وذرينا هشيمة مع الريح.. وتحول إلى حبوب

تملأ الزكائب.. وخرجت من الحصاد بـلا حصـاد حسـبوا جرتى واحتجزوا ثمن ما أكلته وما شربته..وما بقى سيطعم- بالكاد – أطفالى لعدة أيام.

كان الرجل يرتدى عباءة شهباء. والبندقية ارتفعـت أشباراً فوق رأسه... وأقدامه تصدر خشخشة عالية وتثير من حول خطاه التراب...

الشمس مريضة صفراء ... تنحدر فى تعـب نحـو الهضاب السوداء التى اعتدنا أن نسميها" أثداء الزنجيـة" ... شمس مريضة.. وأرض مريضة.. وأنا أيضاً مريض.. أفكر فى جرائم الثأر.. وفى قطـاع الطـرق.. والرجـل القـادم نحوي.. وعندما ارتمى ظل بندقيتـه بجـوار قـدمي.. زاد مرضى كانت سحنته ترابية باهتـة كثعالـب الصـحراء.. وملامحه قاسية.. كأنها منحوتة من صخر.. شـاربة كثيـف وشعر وجهه بلا حلاقة.. وقدماه خرجتا من مقدمـة خفيـة، كبيرتين، أصابع قدميه بدت لى كرؤوس الأفاعي...

انتصب واقفاً أمامي.. كانت حجمه كبيراً... منكبـاه عريضان، ظله ارتمى بجواره ظلى حتى تجاوزه.. وأدركت عندها لماذا كانت قدماه كبيرتين.

امتد من عينيه ألف مخلب وجناح.. أنقـض علـى بنظرة جارحة.. شحذ عينيه حتى امتلأ وجهـه بالتجاعيـد.. وقلت فى نفسي..

ستجدنى صيداً صعباً.

ومرت لحظات صمت ثقيلة وهو يتفرس فى وجهي. كأنه يبحث عن هويتي.. قبل أن يقول.

السلام عليكم.

عليكم السلام.

قلتها فى تحد وتحفز.. كأننى أقـول.. يلعنـك ا .. وكنت أفكر ماذا ستكون كلماته القادمة لا شك أنـه سـيقول أخلع عباءتك.. أو هات ما معك من قطع النقود على عـادة قطاع الطريق.. لكنه قال فجأة:

هل معك ماء يا أخي؟؟

قالها فى عفوية وصدق.. أغتال بهـا كـل مشـاعر العداء فى نفسي. ولأول مرة أدركـت أن شـفتيه مشـققتان كأرض عطشي.. وغمرنى خجل عظيم لأننى ظننت الشـر بهذا الرجل الذى يبحث عن جرعة ماء.

وعندما قدمت له " مطرة" الماء، ليشرب تناولها بين كلتا يديه وأغمض عينيه ووضعها على فمه وظلت بلحة عنقه ترتفع وتنخفض فى سرعة.. كان يعب الماء فى شوق.. حتى أشعرنى بالعطش. تنهد فى ارتياح.

ملعون هذا العطش.. لقد كاد يقتلني..

سار بجوارى.. وأنا لم أعد شرساً.. صـرت طيبـاً وديعاً فقد بدى لى أنه رفيق سفر يمكـن أن أطمـئن إليـه.. وكنت أحس بشيء من الزهو والسعادة لأننـى أنقذتـه مـن الموت عطشاً..

مددت يدى إلى البندقية، وقفلـت جهـاز الأمـان.. وفتحت معه الحديث...

ما اسمك يا أخي؟

عبد ا .

كلنا عباد ا .

إن اسمى الغرباوى

وصمت لحظة ثم قال:

ولكنهم الآن يسموننى الشرقاوي.

قلت فى نفسى لعل له أسماء أخري، فبعضهم يحـب أن تكون له أسماء كثيرة بل أن ا نفسه له عدد من الأسماء لا بأس به..

وظن هذا الرجل ان الأمر بدا غامضاً على إدراكـى فتبرع بالشرح.

لقد هاجرت، وأنا صغير إلى شرق البلاد... عشـت سنين هناك.. وصار اسمى " الغرباوي" لكونى قادمـاً مـن الغرب.. وبعد أن رجعت من الشـرق صـار النـاس هنـا يسموننى الشرقاوى وربما أسافر إلى قبلى البلاد ... وأعـود ليسموننى القبلاوى.. وهكذا حتى أحمـل أسـماء الأركـان الأربعة... وضحك ...

كانت ضحكته طيبة صافية ولكنها حزينة أيضـاً... كمن استطاع أن يصل إلى حل مع حزنه.. وصار قادراً على أن يعيش منسجماً متجانساً مع هذا الحزن.

ورغم ما ظهر من كلماته من فخر.. فقـد اعترفـت بينى وبين نفسى أن الرجل صاحب تجربة عميقة يجـب أن أحترمها ... وعندما مضينا سويا فى الطريق بدا لى كأننـا أصدقاء قدامي.. واكتشفت فى تلك اللحظة أننى لست أرضـاً

بوراً لا تعد بشيء.. فها هى ذى أغصان خضراء من الحب والمودة تنبثق فى قلبى.. وجاء الليل.. ذابت ملامحـه فـى الظلمة.. لم أعد أرى وجهه بوضوح.. وعندما كان صـوته ياتينى فى وسط الظلام كنت أحس به شخصاً آخر.. فلقد بدا وهو فى الظلام، أكثر اقتراباً إلى قلبى، شعرت نحوه بحـب وتعاطف كبيرين. كان ذلك غريباً فلم أكن إنساناً ينفتح علـى الناس بسرعة علمتنى الأيام أن أكون حذراً متوجسـاً.لكـن صوته الذى كان يرن فى صحن الليل رطباً ودوداً كأن ندى الليل بلله ورطب خشونته.

صوته هذا المليء توهجاً وتدفقاً جعلنى أفتح له كـل أبواب قلبى وأعاتب نفسى، كيف لم أكتشف هـذه العاطفـة والود فى صوته منذ البداية، لا بد أن ملامحه التى بدت لـى خشنة قاسية قد أخفت ما فى كلماته من عبير صادق... كانت كلماته كحليب ساخن خرج لتوه من ضروع الشياه.

وانتظرت أن يحدثنى الشرقاوى عن عمله.. لكنه لـم يفعل.. فقلت له فى ود..

وماذا تعمل فى هذه الأيام يا صاحب؟

وكأنما لمست جروحاً قديمة يخفيها تحـت عباءتـه الشهباء.. فقد انتفض فى حدة وانفعال وأكتسب طبقة خشـنة أفقدته توهجه وطلاوته.

كما ترى أننى رجل لا ينتمى إلى شئ.. لا اسم لي.. حينا شرقاوى وحينا غرباوى لا عمل لي.. حينا أشتغل راعيا للأغنام وحينا حطابا يقتطع نبتات البسط والـرتم والشـعال ويحملها على كتفيه.. وحينا أحرق جذوع الأشجار لا صـنع الفحم. وحينا أقتلع جذور الحلفاء... وحينـاً اصـطاد شـياه الغزال لا بيع لحمها فى السوق.. استغلت كل هذه الأشـياء.. وتحملت الإهانات والعذاب كثيراً.. ولكننى الآن ثرت علـى كل هذه الأشياء السخيفة.

وصمت فجأة.

وعلقنى فى حبل صمته..

لم أقل شيئاً.. صرت أدرك أن الشرقاوى يعانى مـن شئ ما.. وأن ثمة شئ قد أغضبه.. وأحسست بحـزن مـن أجله.. بل أننى أنبت نفسى لأننى حركت جروحه القديمـة.. وانتظرت أن يعود إلى إتمام حديثه.. لكنه مر وقـت طويـل دون أن يقول شيئاً... حتى وصلنا مفترق الطـرق.. وكـان

على أن آخذ الطريق الذى يقود إلى قريتي.. وأن يواصل هو سيره..

شعرت بشيء من الحزن لأننى سأفترق عـن هـذا الرجل ولكن إحساساً يملأنى بأننى سألتقى به مرة أخـري... ومددت يدى لأودعه.. لكنه أبقى يده فى يدي.. وكأنما عـز عليه أن يخفى عنى شيئاً ما وتكلم..

أتريد أن تعرف يا صاحبى كيف تمردت على تلـك الأشياء السخيفة.. أتريد أن تعرف لماذا جرجت اليوم عندما لقيتني.. أحقاً تريد أن تعرف..

لم أقل شيئاً فواصل كلامه – لقد انتقمت لنفسى. أننى لست رجلاً طيباً كما تظن يا صاحبى وفى كلمات متدافعـة.. منفعلة.. قاطعة كالسيف وضع أمامى كل شئ.

إننى سارق.. قاتل.. قاطع طريق.

وأطرق برأسه..

وتصورت أننى سأصاب بصدمة عنيفة، سوف تتغير مشاعرى نحوه، سوف أندم لأننى أنقذت قاطع طريـق مـن الموت عطشاً.. سوف.. لكن شيئاً من هذا لم يحدث.. أردت أن يحدث هذا.. لكننى بدوت فى تلك اللحظة كـأن إرادتـى

عاجزة عن أن تتدخل فيما يحدث الآن.. فقد تقبلت كل هـذا كأنه أمر طبيعى متوقع الحدوث، لن يغير شـيئاً مـن أمـر علاقتنا، ورغم ما أردت أن أبينه لنفسى من أنه كان سيقتلنى أنا أيضاً لولا جرعة الماء التى أنقذت حياتـه مـن المـوت عطشاً.. وأنقذتنى أنا من القتل.. رغم ذلك فقد بقيت محتفظاً بمشاعر الود والتقدير العميق له.. وأطوى ذكراه فى قلبـي.. ذكرى قاطع طريق.. فتحت له قلبى ذات ليلة.. ولم أقفله بعد ذلك..

جياد السحب الرمادية

فجاء الشتاء

وتضاءل حجم النهار ما عاد ضخماً عريضاً له قامة طويلة كظلال الصباح، ما عاد بدنه الجيرى يفـرز ضـوءاً شرساً متوحشاً، صار النهار امرأة صغيرة وديعة كالزوجـة الوفية وشمسه المخيفة الكبيرة قلم الشتاء مخالبها فلـم تعـد تخدش وتعض. صارت طيبة وديعة كعيون القديسين.

وجاءت السحب.. غزت بقوافل عرباتهـا وجيادهـا سهول السماء..

وها هو يقف فى شرفة البيت، مـر صـيف ثقيـل يجرجر وراءه خريفاً أصفر وشمسـاً مريضـة.. وأدركـه الشتاء، فصل الغضب والهدير والأعراس التـى تقـام فـى السماء، أنه هنا ينتظر الشتاء كى يبدأ رحلته الخطيرة فـوق جواد قوى جامح من جياد السحب الرمادية. كان شعر رأسه الخشن الغزير كالإنسان الأول يتهدل فوق جبينه وعنقه وقـد اختلط سواده ببياضه، وكان شعر ذقنه الكثيف أشعث مغبـراً اختلط بشعر شاربه حتى اختفى فمه تحت غابة الشعر.. ومد ذراعين ينتشر فوقهما الشعر وفرد الأصابع المخشونة التـى

نبت فوقها زغب ناعم كأنما أحد ذر فوقهـا دقيقـاً أصـفر فسفورياً.. وبدا كأنه يريد أن يتسلق سلما لا مرئياً إلى سحب السماء.. وومضت عيناه ببريق فرحة غريب، وتفتحت براعم أنفه وهو يلهث بالفرحة التى ضاق بها صدره... وظهر فمه من تحت غابة الشعر وهو يغمغم، كأنه يرتل تعويذة سحرية، تطيعه بعدها النجوم والسحب ويخضع له الكون).

يا عالم السحب العجيب يا مدائن وحدائق مسـحورة معلقة فى الهواء.. يا جياداً قوية راكضة أريـد أن أركبهـا وأعبر الكون..

ها أنت قريبة.. هنا

وها أنا هنا.. أجتر أحزان آدم الأولى، الذى أركبـه الرب ظهر جواد ملعون، عبر به الفضاء وهبط إلـى جبـال وصخور هذه الأرض، فأراد أن يبنى فوق الصـخور بيتـاً جميلاً، كبيت مولاه الذى خرج منه مطـروداً، هكـذا أراد، ولكن روحاً مخرباً شريراً انتشر فى الفضاء، أفسد علـى آدم كل مشاريعه، أراد أن يزرع فى بيته السعادة، فنفث الـروح أنفاساً سوداء من الحزن، أراد أن ينمى الصدق فأرسل وراءه كلاب الأكذوبة لتفترسه أراد أن يبنى العدل والمحبة، فغضب

الروح الشرير ونفخ فى صدر قابيل الذى تنـاول الصـخرة وقذف بها وجه هابيل أخيه... فتفجرت فوق الأرض أنهـار الدم أراد الأب الأول أن يبنى عالماً جديـداً، لكـن الـروح الشرير أراده قبيحاً دميماً، وملأ بأنفاسه الثقيلة الهواء، وسمم فوق رؤوسنا الجو، وجعلنا نتنفس الرماد والصديد.

إننى أعرف هذا الروح الشرير.

إننى أشعر بأنفاسه دائماً، أشم رائحته دائمـاً تحـت أنفى، أننى أعرفه، لقد جلست على مقعد القاضى وأنا أحـس بالانتظار، أنتظر يوماً يجرون فيه إلى هذا الـروح الشـرير مقيداً بالسلاسل والأغلال، لا ننفذ فيه حكم العدالة، ولكن بـدلا منه جاءوا يجـرون النـاس المسـاكين، مـزورى النقـود واللصوص والقتلة وأراد أن أكون عادلاً فاطلقت سـراحهم.. ظننى الناس مخرباً مجنوناً. ونقلونى من مقعد القاضى إلـى قفص المتهمين.

كيف تجعل مزور النقود بريئاً؟

لقد أردت أن أكون عادلاً... فلم أعلق الجريمة فـى عنقه وأحاسبه بها، لأنهـا ليسـت جريمتـه.. أن المسـكين ضحية..

ضحية من؟

ضحية ذلك الروح الشرير الذى نفث فى عالمنا الغش والتزوير..

وهذا اللص؟

إنه ليس مسئولا عن السرقة.

إذن من هو؟

إنه الروح الشرير

وهذا القاتل؟

أنه ليس مسئولاً عن الجريمة.

إذا من؟

إن المسئول هو الذى نفخ فى رئتى قابيل أنفاس الجريمة، هو الذى زرع المرض فى صدور الناس، هو الذى حفر فوق الأرض أنهار الدم.. هو الذى جعل آلاف الناس يموتون بالجوع، وقطع الفرصة على عالمنا كى لا يكون جميلاً، كالبت الذى خرج منه آدم مطروداً.. عن المسئول هو الذى زرع بذور الشوك وجعل عالمنا رديئاً مراً.. إنه الروح الشرير.

ولم يصدقنى أحد

لقد نفث الروح الشرير ضباباً أسوداً ثقيلاً ملأ العيون، فتعذرت الرؤيا، وصار الناس يرون العدل باطلا. والباطل عدلاً.

من يومها اعتزلت بإحدى حجرات البيت، لم أعد أطيق التعامل مع هذا العالم الذى يخربه روح الشرير، هذا العالم الممسوخ، الذى يمتلئ بالشر والتفاهة، لقد صرت أكتشف أكاذيبهم.. أرى الأكاذيب واضحة فى عيونهم... أرى بصمات أصابع ذاك الروح الشرير فى أحداق العيون، ولكى أتعامل معهم فلا بد أن أتعامل بالأكاذيب ولكن عينى رأتا وعرفتا فلم يعد سهلاً عليهما الكذب ... إلا إذا اقتلعتهما واستبدلت بهما عينين أخريين.

وهكذا اعتزلت الناس، إلى أن يتم تنظيف هذا الإناء المتسخ الذى اسمه العالم.. حتى يموت الروح الشرير، كى يعود العالم نظيفاً جميلاً.. لا بد لفارس ما أن يقتل الروح الشرير.. فارس ليس كالفرسان.

فيا جيادا قوية خالدة تركض فى الأفق... لم تمسها يد فارس ولا سائس.. تعالى إلي... فسأكون أنا هذا الفارس.. الذى ليس كمثله فارس.

واهتزت أطراف الكون هزة عنيفـة، وامتـدت يـد ضخمة تدير الرحى الكبيرة التى تصنع الرعد.. وأضـاءت الدنيا ومضات سريعة متلاحقة كاشفة من البرق، وتمزقـت قربة السماء فدلقت ماءها وامتلأ كيانه بنشوة جهنمية عربيدة جعلته يهتز ويكز على أسنانه ويرفع رأسه إلى المطر، الذى غمر شعره وملابسه... حتـى أغرقـه... وبـدت عينـاه كجوهرتين تتألقان بإشعاع غريب... ومـن بـين دفقـات المطر، وعل وميض ا لبرق.. بدا له أن يرى لأول مرة ذلك الروح الشرير، رأى أنيابه وقرونه والشعر الذى ينبت فـوق جلده كشوك القنافذ... وهو ينشر هناك بين السحب جنـاحى الخفاش الذين يطير نهما، ورأى شهابين عرف أنهما عيناه.. رآه واستمع إليه يرسل غناء وحشياً ويهز جناحى الخفاش فى انتصار ويرقص على أنغام مهرجان المطر والبرق والرعـد والريح.. وبدأ كأنه يرقص هناك ليتحـداه.. وامـتلأ حنقـاً وغضباً، وكشر بعينيه وأنفه وفمه وحذف بقبضة يـده فـى الهواء كأنه يوجه لكمة إلى وجه الروح الشـرير.. وزمجـر وهو يرتل التعويذة التى سوف يحرقه بها.. خرج صوته فى

هدير عنيف متواصل أراده أن يعلو على هـزيم الرعـد... وخاطب قوافل السحب.. والروح الشرير فى آن".

هذه الجياد العنيدة القوية. الجامحة، التى تتراكض فى مواكب رهيبة عبر سهول السماء.. جياد السحب الرماديـة، هذه التى ترعب الكون بصهيلها وتهـزه وتجعـل أطرافـه أصابعه ترتعش هذه التى تتحرك فى السـماء.. فتهـز كـل كبرياء الكون بزمجرة رعودها.. تجعله يظهر على حقيقتـه شيخاً قديماً عجوزاً أفسده روح شرير فصار يرتعـد أعيـاء وخوفاً..

هذه الجياد الراكضة الخالدة...

سوف أختار أقواها لأطاردك به.

سوف أختار الجواد القوى، الشجاع، الجامح، المليء كبرياء... سوف أضع اللجام فى فمه... واضع فوق ظهـره السروج والأمتعة.

سوف أعتليه واجلده بالسياط، ليتدفق عبر صـحارى الفضاء، غاضباً جامحاً، شيطانياً، كأنه مليـون عاصـفة... سوف أنتشر وراءك عبر كل أطراف الكون.

سوف أكون لعنة تطاردك كالرياح الأبدية فـى كـل مكان.. سوف أجعل من جوادى السماوى كلباً بوليسياً ماهراً يشم راحتك ... لأصل إليك أينما كنت.

سوف أحرق أمتعتك وثيابك.

وأبطل سحرك ومفعول أعشابك وأبخرتك وتعاويذك.

سوف أهشم جمجمتك وعظـام ظهـرك وقفصـك الصدري.. وستموت أيها الروح الشرير إلى الأبد، لكى نبنى عالمنا الجميل.

ذلك ... لأنك أنت... أنت ... ال..

وكأنما أعياه الصراخ.. فارتخت عضلاته المتشـنجة وهبط بذراعيه إلى أسفل.. وأكمل التعويذة.. كأنه لا يهتم بأن يسمع الروح الشرير بقيتها).

ذلك لأنك أنت الشر، وأنا الخير، لأنك أنت الحقد وأنا الحب، لأنك أنت الأكذوبة وأنا الحقيقة، لأنك أنت الهزيمـة.. وأنا فارس النصر الذى لن ينهزم.

وبدا له كأن جواداً من جياد السحب الرمادية، هو لا شك أقوى هذه الجياد وأكثرها شجاعة وجموحاً وكبريـاء.. يتزحزح من مكانه بين بقية السحب ويقفز ويهبط إليـه فـى

الشرفة العالية... وينحنى له ظهره لكى يركبه، ويقفـز بـه بعيداً.. بعيداً.. حيث يتدفق عبر صحارى الفضـاء جامحـاً شيطانياً كأنه مليون عاصفة يطارد الروح الشرير.. ونظـر بامتنان شديد إلى الجواد، وأمسك بشـعر عنقـه... ورفـع قدمه... وقذف بنفسه ليستوى تماماً فوق ظهر الجواد).

في تلك اللحظة، تماماً، تماماً، وفى ضـجة إمطـار ورياح ورعود العاصفة، لم يسمع أحد ارتطام بـدن إنسـان على الرصيف.. ولا شهقة الموت التى أطلقها.. ولا صـوت عظام ظهره وجمجمته وقفصه الصدرى وهى تتهشم).

حول القصة الليبية

بقلم كامل المقهور

لم يعد خافيا أن القصة فى الأدب الليبى تمثل إلى جانب الشعر أنضج أنوع الأدب الذى تفجرت إمكانياته بعد الاستقلال فعلى الرغم من معاصرة الشعر الليبى لسنوات طويلة من حياة الشعب وعلى الرغم من حداثة نشأة القصة الليبية على نحو سوى.. فإن المتتبع للحركة الثقافية يمكنه القول بأن القصة الليبية قطعت شوطاً بعيداً وحققت انتصاراً لم يكن من السهل تحقيقه فى باقى عناصر الثقافة الأخرى.. ويمكن ملاحظة هذا الأمر كما وكيفا.. فقد قدمت القصة الليبية عناصر متوافرة العدد خلال العشرين سنة الأخيرة.. قدموا إنتاجا واضح الوفرة.. فضلا عن أن هذا الإنتاج لم يكن يخلو من قيمة فنية فى شكل إضافة تتسم بطابع الحدة من جهة وبطابع العمق والحصوية من جهة أخرى، حتى يمكن القول بحق أن القصة الليبية كانت أقرب الأشكال الأدبية مواكبة للنهضة الثقافية العربية وأكثرها تمثيلاً للوجه الثقافى لهذا الشعب مما جعلها تتبوأ دون شك هذه المكانة التى

تمثلها، وجعل النقاد يتجهون إليها يبينون مواطن الجمال فـى ثناياها ويجعلونها رمزاً للثقافة الليبية التى ما فتأت تسير جنباً مع خطوات شعبنا المكافح، بل لعل ذلك هو ما دفـع أكثـر الأقلام الجديدة إلى الاتجاه إليها والمساهمة فى حفر طريقهـا وتكثيف جودتها، وإضافة إضافات جديدة إليها.

ولم يكن الفن الروائى غريباً عن الشعب الليبى.. بل إن سنوات الجدب الثقافى كانـت تلجـأ بفنـون الأدب إلـى أحضان الشعب تردها إليه ليقوم بدوره بصبها فـى قوالبـه المعهودة – فنونه الشعبية – يحفظ أصولها وإن استعمل لهـا أدواته فلم تخل الحكايات الشعبية والحـوادث مـن عنصـر الرواية ولم يخل الأدب الشعبى من الشكل الدرامى للقصـة وللرواية ولم يخل الأدب الشعبى من الشكل الدرامى للقصـة وللرواية فى بعض الاحيان.. مما جعل للأديب الليبى الحديث رصيداً لا يستهان به يستغله حين انفتحـت أمامـه الطـرق لارتياد الأشكال الثقافية الحديثة... فكما حفظت ألـف ليلـة وليلة الشكل الدرامى للرواية العربية وكما حاول الهمـدانى والحريرى خوض غمار القصة القصـيرة.. كانـت جـداتنا ومجالس السمر فى دكاكيننا تحفظ إلى حد ما عنصر الروايـة

والدراما فى أدبنا الشعبى عندما كان الأدب والفـن يكـبلان بقيود شديدة من الإرهاب والضغط.. بل إن بعـض أشـكال القصة فى الأدب الشعبى لا تخلو من عناصر كثيـرة مـن عناصر الفن الدرامى وإن فقدت سلاحها وأداتها فى السـرد واستعملت سلاحها هى وأدواتها مما يجعل للفن القصصـى جذوراً فى أدبنا الشعبي ويجعل من السهولة بمكـان العـودة إليها باعتبارها خلفية ثقافية لفن القصة الجديد الذى تفجر بعد الاستقلال. وعلى ذلك فإنه يمكن القول بأن فن القصة عامـة ليس جديداً على الثقافة الليبية وليس صـنوا لهـذه الحركـة الجديدة التى يرتادها المثقفون.. وهو أن تغيرت وسائله فـى التعبير فإن شكله كان دوما موجوداً بوسائل تعبيرية أخرى.. وكان دور القصاص الليبى هو الاستعانة بهذا التراث وهـذه الخلفية لخلق فن روائى حديث وسيلته فى التعبير هو اللغـة العربية التى استردت مكانتها بعد أن فك عنها القيد وأصبحت وسيلة التخاطب ووسيلة التعليم ووسيلة الاستعمال.

دواوين الحكومة ووسيلة التعبير الوحيدة فى وسـائل الإعلام والثقافة. ولقد بان هذا الأثر واضحاً فى اتجاه الكتاب إلى فن القصة القصيرة دونما الروايـة فالعامـل التـاريخى

لنشوء الرواية فى الأدب الليبى يجعل من القصـة القصـيرة الابن الشرعى للبناء الروائى فى هذا الجيـل فقـد تميـزت الدراما لذى الأدب الشعبى بالزجل والخرافة أو مـا يسـمى بالحدوتة... وهى حكاية بسيطة تعبر عن لحظة معينة تحكيها الأمهات والجدات لأطفال تحكى مغزى معيناً يتطلب سـرعة السرد ونهايته فى أضيق نطاق.. وكانـت طبيعـة السـرد وظروفه يجعل من الرواية الطويلة غير متمشية مـع هـذا الظرف. بل أن فقد وسائل النشر وحفظ التراث الشعبى كـان يجعل من "الرواية" الوسيلة الوحيدة للنشر.. والرواية والحفظ يتطلبان على مارى قصر الموضوع... وقصر النص.. حتى يمكن تداوله وانتشاره، وليس أدل على ذلك فى رأينا من أن "الزجل" فقد أعظمه إلا ما كان سريع الحفظ قصير الـنص.. على درجة غير كبيرة من الطول. وكانت الروايـة كشـكل درامى تبقى بين مرتاديها فيما دون فـى كتـب وردت مـن الخارج وقبل فترة الاحتلال كالف ليلية وليلة وقصة عنترة.. وما إلى ذلك. بينما اقتصر الإبداع علـى محاكـاة الأشـكال الدرامية القصيرة مما دفـع بالقصـة – والحكايـة إلـى أن تترعرع وتنمو داخل البيوت على حكايـات النسـاء. وفـى

الحوانيت والسهريات على ألسنة الرجال.. بل إننى أذهب إلى أكثر من ذلك فارى أن فترات كفاح الشعب لصد الغاصـب كانت مناخا طيبا لنمو الحكاية القصيرة والأشكال الأدبية التى تعتمد على "الرواية" دون التدوين.. فما من شبهه بأن فترات النضال يمتاز أول ما تمتاز به ضيق الوقت وسرعة التنقـل وعدم الاستمرار. كما تحمل فى طياتها حكايات الأيام يومـا بيوم... فلك يكن المجاهدون يعرفون مصير الغـد ... أيـن مقره... وأين نتائجه ... بل كانت الحكايات تنقل عن معركة يوم وعن موقف لشخص معين.. وعن لحظـة لموقـف... وعن حوار سريع متقطع لمجاهدين.. وعن حادثـه بسـيطة لمجاهد فقط حياته.. أو انتصر فى موقف.. مما قيد الروايـة وجعلها تقتصر على الحكايات اليومية المتجـددة المختلفـة.. وتقل الأسطورة من حياة البطل الطويلة إلى موقفه اليـومى ومعاناته الآنية.. وكم كان هذا الموقف يتجدد.. وكم كانـت هذه المعاناة تختلف من يوم إلى يـوم... ممـا جعـل مـن عنصر"اللحظة" طابعاً يميز معظم الآداب والفنون فـى تلـك الفترة.. ويطبعها بالسرعة والقصر والاختصـار فلـم تكـن الحكايات تحكى عن المجاهدين من يوم مولدهم حتى مماتهم.

ولم تكن الرحلة الدرامية تلازم "البطل"أسطورة تحكى عـن انشقاق القمر يوم مولده وخمود الرياح يوم وفاته.. بل كانت "الحكاية" تحكى عن يوم معين من حياته أو موقف وقفه.. أو لحظة استشهاده –مما طبعها دون شك وبشيء من التجـاوز بطابع القصة القصيرة وجعل لها بعض عناصرها.. وحفـظ إلى حد ما طريقة إبداعها... بل إننى قد أذهب إلى أكثر من هذا وذاك فارى بأن الحياة الاجتماعيـة والاقتصـادية لهـذا الشعب لم تكن إلى فترة طويلة تعطيه طابع الاستقرار لنشوء أنواع من الثقافة تحتاج إلى طول فى البحث او وقت للتأنى.. فقبل نشوء المدنية الحديثة التى أبعد عنها المواطن الليبـى.. وحتى نشوئها كانت الحياة الاقتصادية تتسم بطابع السـرعة فى الانتقال بحثاً عن وسائل الـرزق. لا تسـتقر اسـتقراراً طويلاً يمنح الفرصة لنشوء عنصر الرواية أو الملحمة بـل كانت تحمل فى ظروفها عنصر السرعة واللحظة الشعرية أو القصصية... فالانطباع هنا انطباع سـريع متجـدد يتطلـب مواقف متجددة ولحظات تعبير متغيرة.. مما يتنافى إلى حـد ما مع عنصر الرواية أو عنصر الملحمة.. وإنـه وإن جـاز القول بأن العمل الروائى يمكن أن يستوعب حدثاً صغيراً أو

لحظة أو فترة قصيرة – جيمس جويس فى أو ليس.. إلا أن هذا مجاله تكنيكاً قصصياً متطوراً.. وليس واجهـة ثقافيـة لوضع بائس وأيام سوداء وسنوات مـن العنـت والقهـر.. وفضلاً عن هذا وذلك فإن الأسوار التى صـنعها المسـتعمر بين هذا الشعب وبين أشكال الثقافة التى كانت تتكـون فـى الخارج نتيجة تطورات اقتصادية واجتماعية جعلت من ثقافة هذا الشعب ثقافة بدائية لا تتجاوز حدوده ولا تستلهم ثقافـات أخرى ولا تستفيد من أى تطور جديد فى تكنيك العلم أو الفن والأدب. وليس من المجحف القول بأن بداية الإنفتاحة الثقافية حتى فى أشكال الفن والأدب العربى إنما جاءت علـى يـد عناصر كانت لها فرصة لممارسة الحياة خارج السور. وإن ساهمت عناصر أخرى كانت سجينة فقد كانت مسـاهمتها لا تتعدى التقليد بينما وردت كافة أنـواع التجديـد علـى يـد المهاجرين أو أبنائهم الذين فروا من الظلم أو على يد الطلبة الذين أتيحت لهم الفرصة الدراسة فى الخارج، على أن الأمر قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية كان سيئاً حتى فـى الـبلاد العربية الأخرى كانت هناك قوى استعمارية تسـيطر علـى أوجه الثقافة والتعليم فى أغلب بلاد الشرق العربى.. وكانـت

اللغة العربية تلاقى العنت والضيق حتى فى البلاد المسـتقلة استقلالا أسمياً.. وكانت الثقافة توجه أوجهاً بعيـدة عـن أن تطور مضمونها أو تصنع بها شكلا حديثاً... وأنه لولا بعض العناصر التى حملت الثقافة سلاحاً جباراً فى معركة نضـال شعوب الشرق العربى لما تلمـس الأدب العربـى عناصـر التعبير الجديدة ولما وجدت أشكال الثقافة هذا التعـدد وهـذا التنوع الذى نراه اليوم.. بل إننى أذهب إلى أكثر مـن هـذا فأرى أن انغلاقية الشعوب العربية التى فرضت عليها إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية وعدم إتاحة الفرصة لها للمشاركة فى الأحداث التى تدور فى المنطقة بعدت بين المثقفين وبين تلمس أبطال روائيين بالشكل الحـديث... وجعلـت همهـم محاكاة أغراض الأدب القديم والنسج على منوال السابقين فى الأدب العربية فبرزت بالتالى صعوبة نشوء أشـكال أدبيـة جديدة إنما نشأت لنشوء حالات اجتماعيـة جديـدة وأنمـاط وأشكال من الواقع الجديد.. وربما كان ذلك لأن الثقافة كمـا سبق القول لم تكن إلا لخدمة أغـراض المسـتعمر وخدمـة حاجات الطبقات المساندة له مما جعل بالتالى نضوج الرواية أو الملحمة أو حتى القصة القصيرة بشكلها الحـديث رهينـاً

ببروز صفة البطل فى الحياة العربية. البطل اليومى الصانع للأحداث.. وبروز طبقة من المثقفين آلت على نفسها رصـد حياته وتحركاته وسرد تاريخه عن طريـق عكـس حياتـه وتطويرها. ولعل نجيب محفوظ والحكيم ويوسف إدريس لـم يكونوا إلا انعكاسا لهذه المشاركة من نماذجهم فـى الحيـاة ولعل بروز أدبهم لم يكن إلا بروزاً لهذه النماذج فى الحيـاة العامة بل لعل تطور أدبهم من سلبيته ونماذجه المريضة إلى عناصر جديدة دافقة بالحيوية، لم يكن إلا تصـويراً لرحلـة الشعب المصرى من شعب يعيش على هامش الأحداث إلـى شعب يصنعها يوميا بالمعانات والصبر والكفاح.

وتأسيساً على هذا وذاك فإن أدب القصة فـى الأدب الليبى هو هذا النتاج للمسيرة الطويلة التى سـارها الشـعب الليبي... هو هذه الخليفة الثقافية فى الحكاية والخرافة وهـو الانفتاحة التى حظيت بها الثقافة بعد الحرب العالمية الثانيـة حيث عرف الشعب نفسه مصـاعب الكفـاح وذاق حـلاوة النصر ثم عرف مثقفوه على فترات متباعدة معين الثقافـات الأخرى وأصولها ونماذجها وقواعدها وأشـكالها المتعـددة ولعله من الجائز القول بأن الفترة التى سبقت الاستقلال كانت

فترة دفع شديدة دفعت ببعض المناضـلين السياسـيين إلـى مطالب شعبية دافقة تكونت على أثرها أحزاب متعددة ببرامج متباينة ومطالب حديثة. ودفعـت بـالمثقفين إلـى سـرعة الإستجابة للتيارات الحديثة فـى الثقافـة والأدب يبـدءونها بعنصر المحاكاة يقلدون كل شئ جديد يحـاولون اختصـار الزمن، والقضاء على فترة الموات الثقافى للحاق بالركـب.. فما من شك فى أن الاستجابة للشعر الجديد كانـت اسـتجابة سريعة وما من شك فى أن خوض المثقفين للأشكال الجديـدة فى الثقافة والأدب كانت جهداً واضحاً حتى يمكن القول بأنه فى فترة لا تتجاوز العشرين سنة عمـرت الحيـاة الثقافيـة بأشكال متعددة فى الفن والأدب ما كان يمكن أن يخوضـها المثقفون لو لم يكونوا أبناء أصلاء لهذا الشعب الذى حـافظ على ذاتيته وعلى ثقافته وأصالته طيلة ثلث قرن من القهـر والغلبة والإبادة. بل أن جماهير الشعب نفسه كانت سـريعة الاستجابة إلى وسائل التفكيـر الاجتماعيـة الجديـدة وإلـى الأساليب الجديدة فى السياسة والحكم والاقتصاد مما انعكـس معه الأثر كل الأثر على الثقافة والفكر فنمت ونضجت كافة المحاولات التى بدأ مؤخراً وكان نتاجها هـذا الفـيض مـن

الإنتاج وكان من نتيجتها هذه الدرجة من الإتقـان والنضـج التى تعمر بها الحياة الثقافية ...

على أنه أن كان من الجائز الوصول إلـى النتـائج السابقة فيما يخص جوهر الثقافة ومضمونها وموقفهـا مـن تاريخ الشعب الليبى.. فإن الخوض فى شكل هذه الثقافة يبدو صعباً وغير سهل المنال فقد ابتدأت النمـاذج الأولـى لأدب المثقفين الليبيين نماذج الدراية بأشكال الأدب.

ينقصها فى أغلب الأحيان الإلمام بالقواعد الشـكلية للعمل الفنى فسميت الخاطرة لفترة ما بالقصـة... وولـدت بعض المحاولات مشوهة تحتاج إلى الدراية بأصـول الفـن وكانت العاطفة وعدم الإلمام بالظروف والقواعد العلمية تغلب على البحت.. وكانت القصة بوجه خاص تأخذ طابعها مـن طابع الحدوتة والحكاية فى الأدب الشـعبى وتسـير علـى منوالها.. وهى وإن استعملت اللغة العربية إلا أن اسـتعمالها كان وسيلة للنشر بل أن هذه الأداء طغت حتى على الحـوار فجرى على نحو من العربية تسهيلا له وتمسكاً باستعمال هذه الأداة كأداة وحيدة للثقافة وكردة فعل للحرب الشعواء التـى تعرضت لها الثقافة العربية، بل أن الشعر على الـرغم مـن

سرعة استجابته للجديد وتبنية الأشكال الجديدة كان ولا يزال تتنازعه الأشكال فينظم شعراؤه قصائدهم فى أشكال قديمـة وأخرى حديثة، بل أن بعض الأشكال الحديثـة فـى الشـعر لازالت على نحو من عدم النضج يبعد بها حتى عن الشـعر نفسه بل أنم هذه المسيرة فى الشكل كانت مسيرة واجبة ولعل فضل الذين ارتادوا الثقافة أنهم على الرغم من عدم المـامهم ببعض القواعد الشكلية كانت الرعيل الأول الذى مهد لهـذه النقلة... الذى جعل من ثقافة هذا الشعب تفيض بهذا الإنتاج الذى يقف إلى حد ما إلى جوار آداب العربية بل إلى جـوار آداب الشعوب الأخرى.

وما من شبهة فى أن أعظم خدمة قدمت لشكل الأدب الليبى هو معرفة شبابه بالواقعية... ذلك بأنه إذا كانت لمثقفى هذا الشعب من فضيلة فقد كانت دوماً هى هـذا الالتصـاق بالواقع التصاقاً هدفه تطويره وخدمته فعلى الرغم مـن هـذا العمر القصير للأدب الليبى فإن المتطلع له يجد بين طياتـه اهتماماً واضحاً بالواقع الليبى.. ومعالجة قضـاياه واسـتيفاء مواضيعه وبلورة مضامينه من المعاناة اليومية لهذا الشـعب فبرزت على الخصوص فى أدبه مشاكل المـرأة والحجـاب

والسفور، مشاكل الشباب والتعليم، مشاكل العامـل والفقيـر والطبقات الاجتماعية المقهـورة... علاقاتـه الاجتماعيـة وتطويرها اقتصاده ومدى الاستفادة منه.. التقدم بفئات الشعب والعناية باحتياجاتها حتى أنه من العسير أن تجـد قصـة أو قصيدة دون أن يكون النموذج الفعال فيها هو هذا المـواطن الكادح الذى يصنع كفاحه من مشرق الشمس حتى مغيبها... وكان لا بد إذن والأديب الليبى يصنع مادته من هذا الواقع أن يلتئم شكله.. أن يحصل على نمط من التعبير الأدبى يـوائم مضمونه ويتمشى مع الموضوع الذى اختاره فاستوى الشكل الأدبي... ونضجت التجربة الشـعرية واسـتقامت القصـة القصيرة وبعد الحوار عن لغة الأحاجى واسـتعاض عنهـا القصاص باللغة العامية وتحددت معالم الشخصيات القصصية حتى لتحس بأنك تراها أمام عينيك حيـة نابضـة بالحيـاة.. وغاص القصاص بوجه خاص فى نماذجه حتى صـنع مـن بعضها ملامح إنسانية رائعة تتحرك على الورق بمثـل مـا تتحرك على الواقع... تشقى فى سبيل أن يكون للحياة طعـم آخر.

ولم تكن مسيرة الشكل طويلة ولكنها كانت مسـيرة شاقة فالشكل حصيلة ثقافية يتمثل فى معرفة اللغـات وفـى الإلمام بالقواعد وفى المثابرة على القراءة والدراسـة وفـى تكوين شخصية معينة للأديب داخل مدرسة ينطـوى تحـت لوائها.. ولكن الأديب الليبى خاصة القصاص كـان يسـتقى شكله من واقع حياته وحياة أبطاله وكانت جماهيرنا تصـنع أشكالها بسرعة.. تستجيب للأحداث... تعانى مشاق الإنسان عبر العصور... تحاول أن تلحق بالركـب وكـان الـنهج الواقعى يسمح للأشكال الأدبية بأن تتطور دون قيد من قواعد جامدة غير متطورة مما دفع بشكل القصـة فـى الأدب أن يضيف إضافات إلـى شـكل القصـة فـى الأدب العربـى الواقعي... ولعل فى ملاحظة أبـو هـروس والمصـراتى والقويرى والفقيه والشريف والتكبالى والهاشمى والرويعـى وفى النماذج الجديدة ما يسمح بالقول بأن رافداً مـن روافـد الواقعية قد تكون، وأن مسيرة القصة الليبية كانـت مسـيرة شاقة ولكنها أفاضت هذا الفيض وأضافت هذه الإضافة يحق لنا أن نفخر بها ونهتز.

وهكذا...

فإن أحمد الفقيه ليس نباتاً شيطانياً ولكنه حلقة فى هذا السلسلة التى تتشابك لتصنع الثقافة الليبية.

وهو منذ بدايته للقصة سنة ١٩٥٨ كان يقترب بشدة من مواطن الجمال فى أدب هذا الشعب.. يستقى حيلته من حياة الناس فى بلدته الأصلية "مزدة" وينمى شكله ومفهومه العام من الحصيلة الثقافية فى المدينة. ثم يغذى هذين الرافدين بهذا التيار الجارف من الأدب الواقعى فى الشرق والغرب.. فنماذج الفقيه هى هذه النماذج التى عايشها فى "مزودة".. هى هؤلاء البسطاء الذين يحن إليهم.. وهو إلى جانب ذلك يجعلهم يتخلصون من سلبية حياتهم.. وروتينها ليكتسبوا شوقاً إلى الحياة الجديدة ... هذه الحياة التى اكتشفها الفقيه فى المدينة والتى شربها دفعة واحدة.

على أن الفقيه ليس دائماً مستبشراً بالحياة.. إن مسحة من الحزن تمشى على نماذجه وكأنها ساكن قديم يعيش فى أعطافهم.. وكأنهم لا يعرفون الاستبشار.. إن الألم صديق قديم للفقيه... وهو يحاول أن يكسب ألم الناس مشاعر حزينة.. وكأنه يخشى أن تموت الجدوة فى قلوبهم أن أحسوا الضحك واشتاقوا إلى الأمل.. ولربما كانت هذه المسحة بقايا

رومانسية لا زال الفقيه يعانيها وهو يحـاول أن يجـد فـى المدينة مدخلا إلى الحياة الجديدة.

على أن ذلك كله ليس كل فن الفقيه وليست النمـاذج التى نشرت فى المجموعة هى كـل أصـالته.. إن المعانـاة واضحة فى هذه البدايات... والشكل لا زال يحتاج إلى كثير من التطوير والجهد.. ولكننا جميعاً نعرف أن ما نشـر مـن القصة الليبية فى مجموعات ليست كل القصـة الليبيـة، إن شوطاً واسعاً قد قطعه الفقيه وزملاؤه.. وربما فى نشره فـى المستقبل ما يلقى كثيراً من الضوء على القصة الليبية.

وإن كان فى مطالعة هذه المجموعة ما يسمح بالقول بأن القصة الليبية قد استوى عودها ووقفت على قدميها فـأن ذلك ليس إلا نتيجة لهذا التطور.. أن أحمد الفقيـه وخليفـة التكبالى ويوسف الشريف يقفون اليوم على قمة التطور.. وإن فى نتاجهما يشكل إضافة تجعل من السهل التنبؤ بأن القصـة الليبية لا زال أمامها شوطاً يجب أن تنهى بناؤه..

وبعد

لم يعد البحر بوناً شاسعاً من المـاء لا يخوضـه إلا الرجال الأشقياء.. لم تعد الصحراء بحراً واسعاً من الرمـال

تأكلها الشمس.. لم يعد هذا الوطن بحراً يعيشـه الشـقاء... صحراء يأكل أبناءها حر الشمس.. لم تعد الطـرق مقفولـة تسدها جحافل الجنود... يأكل زرعها الجـراد ... وتعـيش على مخزونها الفئران ... فمنذ أن تفجرت إمكانيـات هـذا الشعب، أصبح البحر لا ماء فيه، خاضته مئات الأقدام تبحث عن منفذ للحياة والثقافة. وأصبحت الصحراء طريقـاً قـديماً تشقه مئات الأرجل تبحث عن وسائل الرزق. وتلونت السماء بلون فضى تارة وأزرق مرات.. وغامـت عليـه السـحب ولكنها كانت تظل مئات الأزهار وهى تتفتح تاف حياة الناس وتبعث الدفء والجمال.

ولقد كانت هذه المسيرة طويلة وشاقة. فماء البحـر الأزرق المالح لم تكن لتبخره إلا مئـات الأنفـس الحـارة.. ورمال الصحراء الحمراء المحرقة ما كانت لتتعبد طرقـاً إلا بأيدى المئات وأرواح آلاف ودماء الملايين.. ولكنه الطريق الشاق.. بل أنه مئات الطرق الشاقة ولقد قدم هـذا الـوطن مئات الأنفس.. ونفث مئات الأنفاس فـى سـبيل أن يصـير البحر لا ماء فيه.

خمس خنافس تحاكم الشجرة

خمس خنافس كبيرة سوداء رآها " بركه " مؤذن المسجد، تدفن رؤوسها فى بعضها البعض، وتنصب محكمة لإدانة شجرة الزيتون التى تقف بمفردها فوق الهضبة الجرداء المحاذية للقرية.

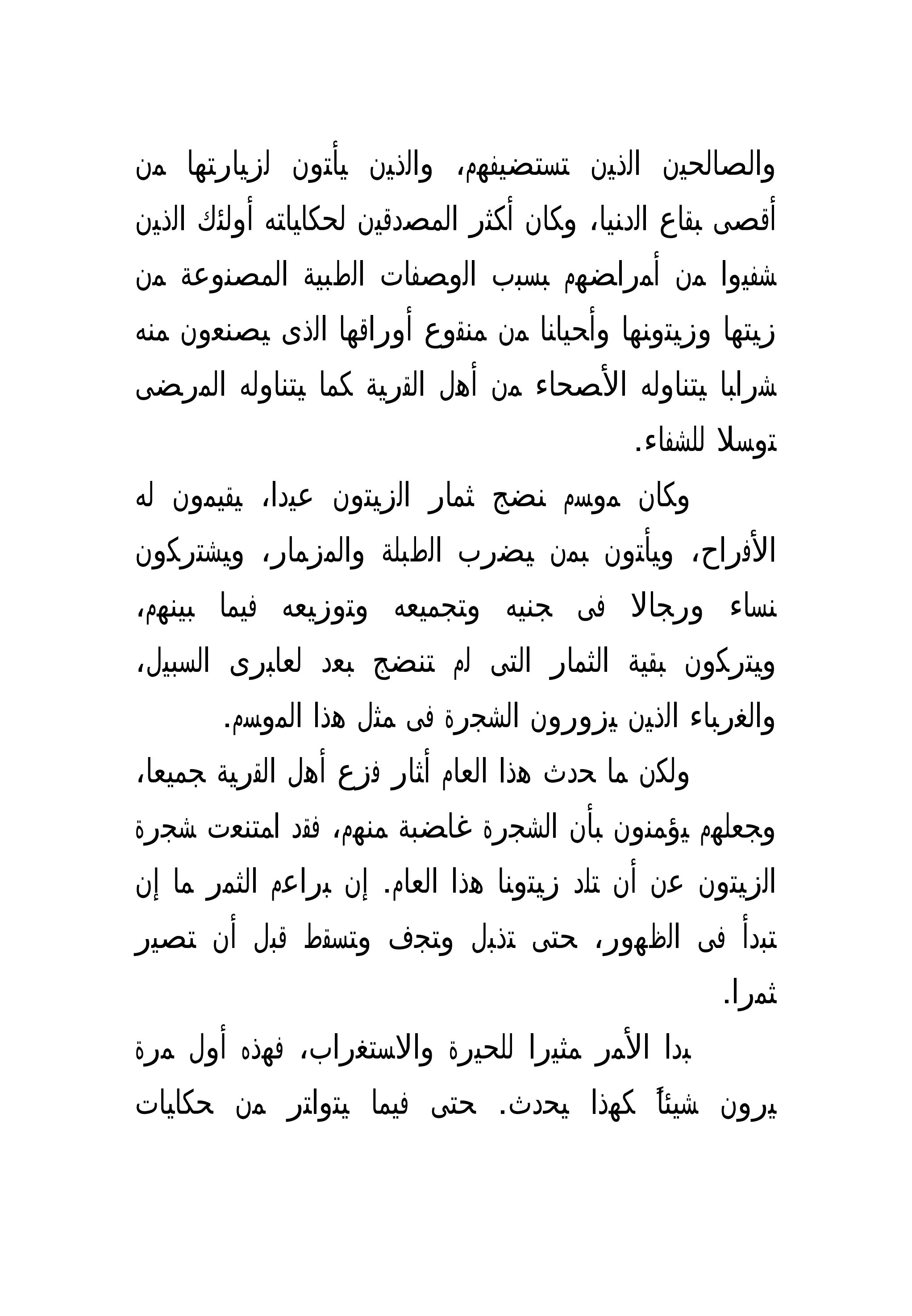
لا أحد يعرف عمرها، فهى هناك مرسومة فوق صفحة الأفق وكأنها وجدت منذ الأزل. ومن موقع اجتماعهم فى ساحة القرية، عندما يتحلقون حول عالة الشاى فى لقاءات العشية، تطل عليهم الشجرة، وهى تنتصب فوق الهضبة القريبة وكأنها قلعة مصنوعة من أغصان خضراء، تهيمن على فضاء القرية، ومن خلفها ترسم الشمس الغاربة لوحة تضج بألوانها المشعة، فتبدو الشجرة وسط مهرجان الضوء واللون، وكأنها كائن أسطوري، يزرع فى قلوبهم مشاعر المهابة والإجلال.

لقد توارثوا جيلا عن جيل الإيمان ببركات هذه الشجرة، وواصلوا تقاليد الآباء والأجداد، فى الاعتناء بها. يزورونها أثناء المواسم الدينية، ويقيمون صلاة الاستسقاء تحتها أيام الجفاف وغياب المطر، ويعلقون فى أغصانها

الأعلام الخضراء التى يضعونها عادة فوق أضرحة الأولياء والصالحين، وينتفعون بثمار زيتونها فلا يضيئون قناديل الأفراح والموالد إلا من زيتها المبارك، ويعتقدون بالجدوى الطبية لهذا الزيت فيستخدمونه فى علاج مرضاهم، ويتناقلون الحكايات المتواترة عن معجزات حققها زيتها وزيتونها مع المرضى، كما يتناقلون ما سمعوه من أسلافهم عن تاريخ هذه الشجرة التى كانت موجودة عندما أنشأ جدهم الأول هذه القرية. فقد ربطته بها علاقة امتنان واعتراف بالجميل، منذ أن أحنت عليه أغصانها وأخفته عن أعين جند السلطان الذين صعدوا خلفه هذه الهضبة يريدون الفتك به. منحته الحماية والأمان حتى زال عنه الخطر، فقرر أن يبقى بقية عمره مجاورا لها، وجاء بزوجته وأولاده وابتنى لهم بيتا فى سفح الهضبة. ولا شك أن كل من يراها يشهد بأنها شجرة لا تشبه الأشجار الأخرى، وأن بها سرا معجزا أنبتها وأبقاها فوق هذه الهضبة، فهى هضبة عارية جرداء، ذات صخور بركانية سوداء، وأخرى من الصوان الذى يلمع طوال النهار مستقطبا ضوء الشمس، ووسط هذه البيئة الموحشة التى لا تسمح بظهور عشبة واحدة، تنتصب شجرة الزيتون هذه،

منفردة وحيدة، دائمة الاخضرار والرواء، غزيرة الورق والثمار والظلال، عظيمة الجذع والأغصان، لها لحاء خشن كثير النتوءات والتجاعيد، يمتلئ بتكوينات وخطوط تتشابك كأنها حروف لغة مجهولة لا يعيها البشر الذين يقطنون هذا المكان، ويعتبرونها طلاسم وأسرارا لا يفك رموزها إلا من رفع عنه الحجاب.

والشجرة منذ أن وجدت وهى ملك مشاع لكل الناس، بما فى ذلك أناس يأتون من خارج القرية، التماسا لبركاتها، أو من أجل الانتفاع بحبات زيتونها لعلاج مرضاهم، وقد توارث الرجال الذين يقيمون الآذان فى مسجد القرية، مهمة الاعتناء بها، وتفقد أحوالها كل يوم، وطرد الأطفال الذين يعبثون بها وأحيانا إقامة الصلاة ورفع الآذان بجوارها. وآخر هؤلاء الرجال، درويش من أتباع الطريقة العيساوية اسمه " بركة "، أو هذا هو الاسم الذى منحه له الناس حتى صار بديلا عن اسمه الذى ولد به. وقد كان " بركة " يقضى معظم يومه تحت شجرة الزيتون، وأحيانا يبقى طوال الليل هناك يرتل أوراده وتسابيحه، وينقل للناس فى الصباح ما كان يسمعه أثناء الليل من أحاديث الشجرة مع أرواح الأولياء

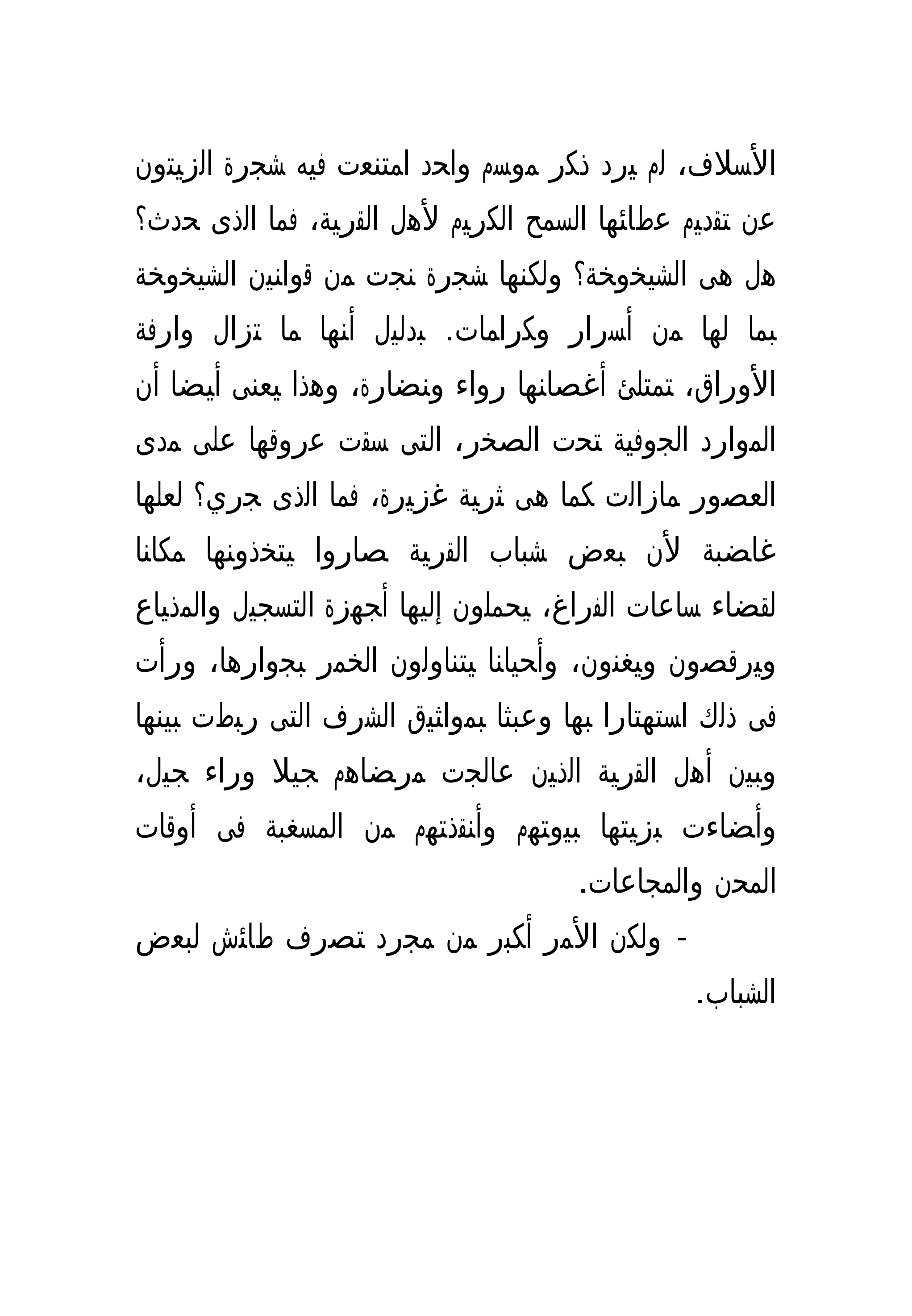


والصالحين الذين تستضيفهم، والذين يأتون لزيارتها من أقصى بقاع الدنيا، وكان أكثر المصدقين لحكاياته أولئك الذين شفيوا من أمراضهم بسبب الوصفات الطبية المصنوعة من زيتها وزيتونها وأحيانا من منقوع أوراقها الذى يصنعون منه شرابا يتناوله الأصحاء من أهل القرية كما يتناوله المرضى توسلا للشفاء.

وكان موسم نضج ثمار الزيتون عيدا، يقيمون له الأفراح، ويأتون بمن يضرب الطبلة والمزمار، ويشتركون نساء ورجالا فى جنيه وتجميعه وتوزيعه فيما بينهم، ويتركون بقية الثمار التى لم تنضج بعد لعابرى السبيل، والغرباء الذين يزورون الشجرة فى مثل هذا الموسم.

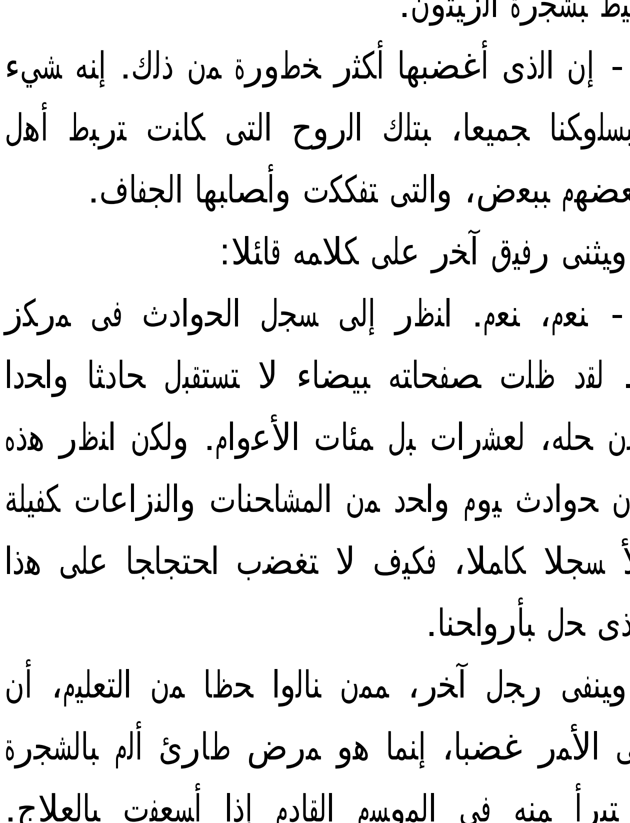
ولكن ما حدث هذا العام أثار فزع أهل القرية جميعا، وجعلهم يؤمنون بأن الشجرة غاضبة منهم، فقد امتنعت شجرة الزيتون عن أن تلد زيتونا هذا العام. إن براعم الثمر ما إن تبدأ فى الظهور، حتى تذبل وتجف وتسقط قبل أن تصير ثمرا.

بدا الأمر مثيرا للحيرة والاستغراب، فهذه أول مرة يرون شيئاً كهذا يحدث. حتى فيما يتواتر من حكايات



الأسلاف، لم يرد ذكر موسم واحد امتنعت فيه شجرة الزيتون عن تقديم عطائها السمح الكريم لأهل القرية، فما الذى حدث؟ هل هى الشيخوخة؟ ولكنها شجرة نجت من قوانين الشيخوخة بما لها من أسرار وكرامات. بدليل أنها ما تزال وارفة الأوراق، تمتلئ أغصانها رواء ونضارة، وهذا يعنى أيضا أن الموارد الجوفية تحت الصخر، التى سقت عروقها على مدى العصور مازالت كما هى ثرية غزيرة، فما الذى جري؟ لعلها غاضبة لأن بعض شباب القرية صاروا يتخذونها مكانا لقضاء ساعات الفراغ، يحملون إليها أجهزة التسجيل والمذياع ويرقصون ويغنون، وأحيانا يتناولون الخمر بجوارها، ورأت فى ذلك استهتارا بها وعبثا بمواثيق الشرف التى ربطت بينها وبين أهل القرية الذين عالجت مرضاهم جيلا وراء جيل، وأضاءت بزيتها بيوتهم وأنقذتهم من المسغبة فى أوقات المحن والمجاعات.

- ولكن الأمر أكبر من مجرد تصرف طائش لبعض الشباب.



يقول أحد الجالسين فى ردهة السوق، يرتشف كوب الشاى بصحبة رفاقه، وينظر فى أسى إلى الأفق المتوهج الذى يحيط بشجرة الزيتون.

- إن الذى أغضبها أكثر خطورة من ذلك. إنه شيء يتصل بسلوكنا جميعا، بتلك الروح التى كانت تربط أهل القرية بعضهم ببعض، والتى تفككت وأصابها الجفاف.

ويثنى رفيق آخر على كلامه قائلا:

- نعم، نعم. انظر إلى سجل الحوادث فى مركز الشرطة. لقد ظلت صفحاته بيضاء لا تستقبل حادثا واحدا نعجز عن حله، لعشرات بل مئات الأعوام. ولكن انظر هذه الأيام، أن حوادث يوم واحد من المشاحنات والنزاعات كفيلة بأن تملأ سجلا كاملا، فكيف لا تغضب احتجاجا على هذا البلاء الذى حل بأرواحنا.

وينفى رجل آخر، ممن نالوا حظا من التعليم، أن يكون فى الأمر غضبا، إنما هو مرض طارئ ألم بالشجرة وسوف تبرأ منه فى الموسم القادم إذا أسعفت بالعلاج. فيستنكر الآخرون كلامه، لأن شجرة مباركة مثلها، نبتت فى الأرض الخلاء، وضربت الصخر، وعاشت على مدى

العصور عفية، وارفة الظلال والأغصان، لا يمكن أن تمرض أبدا.

ويرى الحاضرون " بركة " المؤذن، قادما فى طريقه إلى صعود الهضبة فيتجهون إليه بأنظارهم، يطلبون تفسيرا لما حدث، فهو بحكم العلاقة الحميمة التى تربطه بها، أكثر الناس قدرة على فهمها ومعرفة الأسباب التى أغضبتها. فيجلس بركة صامتا لبعض الوقت وقد ترقرقت فى عينيه العبرات، ثم يقرر أن يخبرهم بما رأى مقسما، أنه لا يقول إلا الحق، لقد رأى بعينيه اللتين ستأكلهما الخنافس والديدان، خمس خنافس سوداء ذات أحجام كبيرة كالقنافد، تثير حشرات الجبل ضد شجرة الزيتون، وتتفق فيما بينها على أن تعقد محكمة لمحاكمة الشجرة وإدانتها. وإنه سمع وهو يتكئ على جذع الشجرة، وقد أسبل عينيه متظاهرا بالنوم، التهم التى وجهتها محكمة الخنافس للشجرة. ويزحف الجالسون نحوه، يقتربون منه ويصنعون حلقة تضيق أكثر كلما استرسل فى الكلام، يسألونه بلهفة عن هذه التهم، وعن الجريمة التى ارتكبتها شجرة الزيتون المباركة فى حق حشرات الجبل، فينقل إليهم " بركة "، كيف أن الخنافس تتحدث عن الأذى

الذى لحق بها، كما لحق بأجيال سبقتها من أهلها ومن أهل الحشرات الأخرى، نتيجة وجود هذه الشجرة، فهى شجرة طفيلية كما تقول الخنافس، جاءت تسكن جبلا لا تنتمى إليه ولا ينتمى إليها، تاركة البساتين والسهول والأودية والجبال الخضراء لتزاحم الحشرات فى هذا المكان، وهو حفر وصخور وأحجار متكلسة سوداء وبيضاء وحمراء، لجأت إليها هذه الحشرات واستوطنتها، لأنه لا وطن لها غيرها ولقد أضارها وجود هذه الشجرة، دون أن يحقق لها نفعا، فهى لا تتداوى بأوراقها ولا تتغذى بزيتونها، ولا تستسيغ زيوتها. ومن حق حشرات الجبل أن تعيش آمنة بين أحجارها وصخورها بعد عصور من المهانة والأذى، فبسبب هذه الشجرة جاء البشر يتسلقون الصخور والحجارة إلى عالمها، ويقتحمون ديارها، يحملون معهم حقدهم التاريخى ضد الخنافس والديدان والحشرات الأخرى، يدوسونها بأقدامهم ويسحقون رؤوسها بحجارتهم ولولا هذه الشجرة لعاشت الخنافس والديدان والعقارب والسحالى هانئة آمنة.

تضيق الحلقة حول " بركة " وهم يسألونه عن النتيجة. ماذا قالت الشجرة وكيف دافعت عن نفسها، وما هو

الحكم الذى أصدرته محكمة الخنافس ضدها، ويظل " بركة " صامتاً لا يجيب، فالمحكمة لا تزال قائمة تستمع لأقوال الشهود الذين حشدتهم لإثبات التهم ضد شجرة الزيتون، والشجرة ترفض أن تقول كلمة واحدة أمام محكمة الخنافس.

يصدقه البعض، ويسخر من قوله البعض الآخر، ولكن بركة يتركهم يتجادلون، ويذهب صاعدا الهضبة إلى حيث شجرة الزيتون، وقد بدا الأفق أكثر احمرارا فانعكست حمرته فوق أحجار الصوان التى بدت مثل بقع كبيرة من الدماء وسط رقعة السواد التى تصنعها الصخور البركانية. ومن هناك من فوق الهضبة، أطلق " بركة " صرخة موجعة طويلة، رددت صداها الهضاب البعيدة، وأفَزعت أهل القرية الذين تركوا مجالسهم وبيوتهم ودكاكينهم، وتسابقوا جميعا يتسلقون الهضبة إلى حيث شجرة الزيتون، وما إن وصلوا إلى هناك حتى رأوا مشهدا عجيبا، رأوا شجرة الزيتون وقد اختفت أوراقها وأغصانها كما اختفى جذعها كله، تحت طبقة كثيفة من الخنافس والديدان وأنواع غريبة من النمل الأسود والأحمر، وأكداس من الحشرات الطائرة ذات الطنين والأزيز. جاءت بأعداد لا تحصى تهاجم شجرة الزيتون،

وتتسلقها حتى آخر ذؤابة فيها. وانتشرت الحشرات الطائرة تصنع سحبا فوقها وحولها وتحوم فوق رؤوس أهل القرية وتحط فوق وجوههم وقد وقفوا مشدوهين، يدفعون عن أنفسهم هجوم الحشرات. تسمروا فى أماكنهم عاجزين عن فعل أى شيء أو قول أى شيء عدا عامل أجنبى من الوافدين حديثا إلى القرية جاء به الفضول مثلهم إلى الهضبة. وما إن رأى هذا المشهد، حتى عاد مهرولا إلى القرية، من أجل أن يأتى بآلة التصوير ويلتقط صورة لهذا الحدث الغريب، موقنا بأنه سيفوز بجائزة ثمينة من تلك المجلة المصورة فى بلاده التى تحتفى بنشر أغرب الصور.

ذات ليلة إبريلية رائعة

حبيبتى ...

سأحكى لك فى هذه الرسالة القصيرة، كيف تأتى لى ذات مرة... أن أنتصر على القمر.

كان ذلك فى منتصف ليلة إبريليـة رائعـة عنـدما راودتنى يا حبيبتى فكرة هى أن أرتدى ملابسى وأضع قدمى فى الحذاء، وأخرج فى رحلة صيد. لا لكى اصطاد يا حبيبتى الغزلان ولا لكى أوجه فوهة بندقيتى القديمة التى ورثتها عن والدى لاكسر بها أجنحة طيور الخجل أو السمان أو القنبر... ولا حتى لكى أطلق رصاصى لأقتنص لى وعلا... ذا قرنين طويلين او لبيبين.

كلا يا حبيبتي...

فما فكرت فى اصطياده تلك الليلة لم يكن صيداً عادياً يحتاج كما أفعل دائما إلى أن أحمل من أجله ببندقية الصـيد العتيقة على كتفي...

أبداً.. فقد أردت ليلتها.. أن أصطاد قمراً...

كل ما سأفعله هو أن أشـد القمـر مـن أطـراف خيوطه... تلك الخيوط التى تسترسل منه رقيقة ناعمة فضية اللون...

وبكل ما فى جسمى من قوة متواضعة سوف أسحبه من هذه الخيوط وأوصل عملية سحبة وجـره حتـى يسـقط بجانبى على الأرض ومن ثم آخذه معى لأقدمه يـا حبيبتـى هدية متواضعة إليك... يوم عيد ميلادك.

وهكذا فعلت...

كان القمر فى تلك الساعات من آخر الليـل يرسـل أسلاكه الفضية الرفيعة الناعمة من المكان الذى وصل إليـه من جهة الغرب... وقد تجلى فى هالة من النور تتوهج مـن حوله فى غزارة وخصوبة وألق.

كان جميلاً يا حبيبى وحلوا.

وجهه وضيء لامع، وكنت أنا أتوقد سـعادة لأننـى سأقتنص هذا الشيء الجميل وأقدمه ملفوفاً بغلائل رقيقة مـن أشواقى وهيامى هدية أضعها بين يديك...

كان قد قطع شوطاً طويلاً من رحلته الشـاقة عبـر منطقة السماء... وما زالت أمامه مسافة صغيرة ينهى بعدها

الرحلة، لا شك أن المشوار الطويل أتعبه، أننى أتعجب كيف يستطيع على ما له من الرقة والرهافة والنعومة أن يعبر هذا البون السماوى الشاسع.

على أى حال فإننى سأوفر عليه مشقة قطع المسـافة المتبقية... سأقتلعه فى الحال ... وأسحبه حتى أحضره هنـا بين يدى.

وهيأت نفسى لعملية سحبه.

سويت مواضع قدمى وأثبتهما فى الأرض جيدا...

وحسرت أكمام قميصى عن ذراعى ونفخت بأنفاسى فى كلتا يدى لأبعث بهما شيئاً مـن الحـرارة والنشـاط... وأطبقت بأصـابعى علـى الأسـلاك الفضـية الرقيقـة... وسحبت...

وما حدث بعد ذلك فقد كان شيئاً يـدعو إلـى الألـم حقاً... ذلك أن الأسلاك القمرية الرفيعة كانت أو هى من أن تحتمل... فسرعان ما انقطعت فى يدى ...

والقمر... ظل في مكانه البعيد يبتسم ... لا ... إنه لا يبتسم يا حبيبتى بل هو يضحك يقهقه شئ واضح إنه يقهقه سخرية بى وبخيبتى.

وكم وددت فى تلك اللحظة... لـو أن خيطـاً مـن الخيوط الفضية.. خيطاً واحداً فقط، بقى متيناً ولـم ينقطـع لكنت مسكت به... وتسلقته صاعداً إلى القمر حتـى أصـل إليه، وأنزل بها صفعة قوية على وجهه. عموماً يا حبيبتـى فإن القمر فى النهاية لم يملك إلا أن يهزم أمام حبيبك.

ذلك أننى عندما لم أستطع الصعود إليـه لا جازيـه على سخرية بى، حدجته من موقفى بنظرة سـاخرة ولـم أر بأساً فى أن أصحبها بمصمصة هازئة من شفتى.. ثم انفجرت ضاحكاً فى وجهه. ضحكاً خرج من فمى فى عاصـفة مـن الضجيج والعربدة، فقد ضحكت بكل قـوتى حتـى أجعـل ضحكاتى تعلو على ضحكاته.

وساعدتنى الوهاد القريبة. وزوايا الليل عندما رددت معى الضحكات فى صدى مفرقع عارم كأنه الهدير...

وهكذا استطعت أن أكسب الموقف وأن أضـم إلـى صنفى أصدقاء جدد يشاركونى الضحك والسخرية بالقمر..

ولم يكن شيئاً غريباً يا حبيبتى حينذاك أن أرى القمر يتوارى من أمامى، يختفى ن يغوص فى باطن الأفـق فـى

خجل... وبوجه محتقن بالحمرة، معترفاً أصرح أعترف أنه انهزم أمامى أن الفارس من بنى الإنسان.

وعندما أفقت يا حبيبتى من النوم على صوت قهقهات كنت أنا مصدرها، لم أصدق إننى كنت نائماً، وإننى أحلم ... تهيأ لى منذ تلك اللحظة أن ما مر بى ليس أبداً حلماً وإنما هو شئ حقيقى وقع معى بحق وصدق وحدث لى فى حياتى اليومية التى أعيشها وأنا يقظ صاح عيناى متفتحتان على وسعهما.

حتى وأنا أكتب يا حبيبتى هذه السطور بعد أيام طويلة مرت ... لا زلت واقعا تحت هذا التأثير كون ما حدث لى لم يكن أبداً من إضعاف الأحلام، أو مما يراه الإنسان فى ساعات النوم... لكنه شيئاً وقع لى فى لحظات لم أكن فيها يقظاً فقط بل وممتلئاً باليقظة، شاعر بها بعمق وبصفاء... هذه اليقظة.

كذلك وأنا أتذكره الآن... أتذكره لا كما يتذكر الإنسان حلما شاط فى الخيال مر به ذات ليلة وإنما أتذكره الآن... تماماً... كما أتذكر لحظات لقانا... كما أتذكر كلماتك التى تقولينها لي... كما أتذكر وداع أمى لى على

المحطة عندما أسافر ... كما أتذكر كل شئ مر بحياتى هـو واقع وحقيقة وصدق.

بل وأكثر من هذا أشعر حيال هذا الحادث بشـعور غريب ... أجدنى مدفوعاً لأن أعترف لك به، فأنا لا أحـس حياله أنه فقط شيء حدث لى فى يقظتى وبحق وحقيـق بـل وأتعدى هذا الإحساس إلى أن هذا الموقف دون المواقف التى صادفتنى فى حياتى أشعر بأنه موقف كالكائن الحى له نبض وله حركة وتتردد منه الأنفاس.

وما دمت قد اعترفت لك بهذا فلا ضـيف مكمـلاً اعترافاتي... إننى فى كل الليالى التى أعقبـت تلـك الليلـة أواظب على أن أقوم من نومى بعد منتصف الليل، وأقـف بشرفة البيت لألتقى بعينى مع القمر أو أنتظر بزوغه إذا كان لم يظهر بعد...

وعندما أنظر إليه يغمرنى شعور جارف بأن القمـر أيضاً يرمقنى بالنظرة خاصة...

فقط أحسن بأن فى نظرانى لمعة انتصار، والنظـرة التى يرمقنى بها فيها الشيء الكبير من معانى الهزيمة.

وحتى نلتقى لك حبي..... !!

رجل من زمن الأساطير

فى عنبر المواليد الجدد اكتشف الممرضون وجـود طفل زائد عن العدد، لاعهد أحد به، ولم يأت له ذكـر فـى دفاترهم ولا يذكر أحد منهم أنه رآه أو جاء به إلى العنبـر، ظنوا فى البداية أن هناك خطأ فى مكان ما، وأنه لابـد وأن لهذا الطفل أن تنام الآن بأحد الأسرة، لكـنهم رجعـوا إلـى الدفاتر والسجلات وأعادوا حصر الأمهات وعمليات الـولادة التى تمت فى ذلك اليوم واليوم الذى قبله، فلم يهتـدوا إلـى الخطأ، ذهبوا يرفعون الأمر إلى إدارة المستشفى ويبحثـون معها عن حل لهذا اللغز دون جدوى تأكد لهم أن الطفل دخيل على المستشفى، وأن امرأة ما، خاطئة من الخاطئات أنجبـت ثمرة حراماً، وتسللت فى غفلة من أعين الممرضين والخفراء إلى عنبر المواليد الجدد ووضعت هذا الطفل فى سريره حيث ينام الآن، حتى وإن بدا واضحاً أن الطفل لم يولـد إلا منـذ لحظات قصيرة مضت، وانه يرتدى نفـس اللفـائف التـى يستعملها المستشفى، فلا يستبعد إذا أن يكون الأمر قـد تـم بمعرفة وتواطؤ أحد الممرضين أو الممرضـات، وأن فـى الأمر شيئا يثير الظنون والشبهات، وأن لابد من تحقيق فـى

الموضوع يشمل كل العاملين بهذا القسم، ولكن شيئا جديـداً طرأ على الموضوع جعل الاستعداد لإجراء التحقيق يتوقـف على الفور، وأن هذا الطفل ليس سوى معجزة ظهرت فجـأة فى هذا العنبر من عنابر المستشفى، فقد بدأ الطفل ينمو بشكل غريب وقامته فجأة تطول بصورة تثير الرعب خرجت قدماه عن الحيز الصغير للسرير فجاءوا بسرير أكبر وبرغم الذعر أخذوا الطفل ووضعوه فوقه ووقفوا ينظرون بعيون يملؤهـا الخوف والاندهاش إلى المعجزة التى تتحقق أمام أبصـارهم، غمرت المستشفى حالة طوارئ، ترك الأطباء أعمالهم وترك المدراء مكاتبهم وجاءوا يتحلقون حول السرير، ويشـاهدون الطفل فى نموه المخيف الغريب، ساقاه وذراعاه وأصابع يديه وقدميه وملامح وجهة كلها تنمـو وتكـر وتطـول وتربـى عضلات وينمو فوقها الشعر، أمام أعينهم فى مشـهد كأنـه الحلم أو الكابوس وهم جميعا فى حيرة وذهول لا يعرف أحد منهم إن كان ما يراه كذباً أم حقيقة، تكـاثر الزحـام حـول السرير، جاء علماء الدين يرتلون آيات من القرآن الكـريم، وبقية الناس ساهمون لا يجدون للأمر تفسيرا سوى أن هـذا علامة من علامات مجيء الساعة فصاروا يلهجون بالـدعاء

والاستغفار وذكر الشهادتين، مضت عدة ساعات فإذا بالطفل الذى كان قطعة ضئيلة من اللحم الآدمى يستوى أمام أعينهم فجأة رجلاً بكامل هيئته، كأنه واحد منهم، نـام لحظـة ثـم استيقظ من سريره فى حضورهم وضع لفافة حـول جسـمه وقفز من السرير واقفا أمامهم، كان الأمر فوق ما يتصـوره العقل وكان المستشفى قد دعى لمشاهدته عـدد كبيـر مـن المسئولين فى الدولة والصـحافيين ومصـورى الإذاعـات والصحف ووكالات الأنباء، وكان يصدر عنهم هرج كبيـر، والمصورون ينهمكون فى التقاط الصور، وعدد من النسـاء والرجال انهار يبكى وأخر أغمى عليه وهو يـرى الطفـل رجلا يقف أمامهم، أطلق الرجل صيحة كأنها الزئير فتجمدوا فى أماكنهم رعبا، التفت شمالاً ويميناً وظنوا أنه سيبدأ علـى الفور بخنقهم فردا فردا، إلا أنه فاجأهم قائلاً:

أين الشهادة؟

تنهدوا فى ارتياح عندما رأوه رجلا مثلهم يبحث عن شهادة علمية يؤمن بها لقمة عيشه، هرول عدد منهم وأحضر من فوره شهادة جامعية عليها الأختام والطوابع والتوقيعـات استلم الشهادة فى نفور وطواها دونما اعتناء ورمى بها فـى

جيبه، ثم التفت شمالاً ويمينا مرة أخرى كأنه يتفقد شيئا عـاد إليهم خوفهم وتداخلوا فى بعضهم الـبعض يحتمـى أحـدهم بالآخر، لكنه قال فى لهجة تمتلئ تبرما وسخطاً:

ألم تحضروا الزوجة بعد؟

ها هو يؤكد مرة أخرى أنه ليس سوى رجل مـثلهم من طينة هى نفس طينتهم وأن المسكين لاهم له بعد الشهادة سوى الحصول على الزوجة، ذهبـوا مهـرولين أحضـروا الزوجة عقد عليها بحضورهم وضع يده فى خصرها وقـال بلهجته الآمرة !

أين القرض إذا؟

كاد بعضهم يضحك من السعادة ويتقدم ليضربه على ظهره فى ألفة ومودة كأنه أحد الأصدقاء القدامى، إنه لـيس فقط رجلا مثلهم، إن له أيضا نفـس ضـعفهم ومطـامعهم، هرولوا إلى المصرف يحضرون له قرضا،جاء القرض وفتح الحقيبة ليطمئن إلى كمية النقود أعاد قفلها وقال وقـد لانـت لهجته قليلاً.

هل السيارة جاهزة الآن؟

لم تمض دقائق حتى جاءت السيارة، وضعوها أمـام المستشفى وجاءوا يسلمونه المفاتيح، تأكد لهـم الآن أن مـا ظنوه معجزة ليس سوى رجل من أبنـاء جلـدتهم، توقـف العلماء عن القراءة فقد أدركوا أن ليس فى الأمر شيء يوحى بقيام الساعة هذا اليوم، وتوقف المصـورون عـن التقـاط الصور وبدا الرجل أمامهم عاديا لا يثير الفضول إلى حد إن إحدى الممرضات كادت تتولى طرده لولا أن مسئولا أوقفها، كان الرجل قد وضع المفاتيح فى جيبه وأخذ حقيبة المال فى يده وسار يقود زوجته وهم يتبعونه حتى صعد السيارة، لوح بيده إلى الجمهور الذى احتشد حول السيارة وأدار المحـرك اندفعت السيارة إلى الأمام قليلا ثم فجأة أخذت ترتفع وترتفع حتى تجاوزت الأبنية والعمارات، لم يثر الأمر فضـولهم أو دهشتهم فهذا ما يفعلونه هم أيضا فى أحيـان كثيـرة، رأوه مسرعاً يشق بتلك السيارة الفضاء، حتى اختفى بهـا خلـف السحب !

انصرفوا بعد ذلك فى هدوء كأنهم يشاهدون عرضـا مسرحيا !!

رسالة اعتذار إلى ليلى من رجل لم يعرف كيف يحب

إننى أحبك، إننى أحبك، لكننى رأيتك حين جيوش الروم إلى القدس العربية، تبتسمين.

كنت أدارى خجلى، وأمسح عن ثوبى دماً يتدفق من صدرى، محتمياً بجدار المسجد، وقد فاجأنى سهم من جيش الغزو. أرقب فى حزن شمس العرب الغاربة وراء هضاب القدس، وأرقب رايات الأعداء وقد ارتفعت فوق مآذن بين المقدس، تحمل نجمة داود وجمجمة وصليباً معقوفاً. حين رأيتك يا ليلى تقفين بإحدى الشرفات، اكتملت زينتك، توهج بالنور جبينك، واختلط الضوء القادم من وجهك بالليل المتهدل شعراً فوق العنق وفوق الكتفين، اشتقت لأن أحضنك، وألثم قبل ذهابى هذا الوجه، وهذا الشعر، وهاتين العينين، وها قد غابت شمس العرب وراء هضاب القدس، فهل تشرق شمسك – يا ليلي- فى قلبى.

تذكرت أنك رسم شاهدته فى معرض رسام عربى، تفنن يا ليلى فى عزف الموسيقى القادمة إلى المتفرج من

عينيك ومن شفتيك ومن نهديك، كنت بحق أبهى اللوحات وأعذبها لحناً. لكنى رأيتك فى اللوحة تبتسمين لموكب جند الروم، وتبتهجين لغزو القدس، رأيتك فى اللوحة يا حبى تقتطفين الورد من البستان وتمدين يداً خارج إطار اللوحة ترمين به جنيد الأعداء، فأحسست بأن فجيعتى فى حبى، وفجيعتى فى وطنى، والدم النازف من صدرى وصرخات النجدة يطلقها طفل عربى من حولى تسلمنى جميعاً لطيور سوداء، تغطى الآن سماء القدس، وتأتى تهاجمني. كنت أحبك، كنت أحبك، كنت أحبك، وأظن بأننى أصنع من حبى قلاعاً تمنع عنك البرد وقيظ الشمس، وتمنع عنك الجوع، وتمنع عنك الخوف، وتمنع عنك العجز، وتحمى هذا الحسن فلا يبليه الزمن ولا يذبل، وتبقى هذا القبس النورانى لمتدفق من عينيك ومن شفتيك ومن خديك ومن كفيك ومن نهديك، ومن عنقك مشتعلاً أبد الدهر فلا يخمد، لكنى فى تلك اللحظات المملوءة بالفاجعة وبالمأساة، حيث رأيتك فى لوحة رسام عربى تقفين بإحدى الشرفات لتحية جند الإفرنج، وتبتسمين ملوحة بيديك ليهود الغزو، أدركت بأننى لم أعرف كيف أحبك – يا ليلى – حباً يمنع عنك سقوطاً مأسوياً فى

اللحظات الأولى لغروب الشمس أحببتك يا ليلى حباً مثل ضياء القمر ومثل خرير الماء ومثل عبير الورد، ما أسرع ما هزمته رياح الغزو الهمجية. ووقفت وراء جدار المسجد مختبئاً، يغمر جسدى الدم، أبكى سقوطك يا ليلى، وسقوط القدس، فمعذرة إن لم أعرف كيف أحبك.

جاءتنى على الفور طيور الموت السوداء تهاجمنى، فأسلمت لها نفسى، لكنى فى اليوم الثانى، أو الثالث من موتى، شاهدتك يا ليلى فى صورة حملتها أجهزة البث المرئية: تقودين مسيرة غضب ضد جنود الغزو، تسطع بين يديك مشاعل ثورة شعب ضد القهر، وضد الموت وضد جنود الرعب القادم من خلف الظلمات ومن خلف البحر، فنهضت- يا حبى الضائع – من موتى، وذهبت ألهج باسمك فرحان فى كل الطرقات، وأبحث عنك لكى ألقاك وأطلب صفحك. إنى أحبك، إنى أحبك، فليشعل هذا الحب رمادى، وليحى عظامى وهى رميم، وليمنحنى سيفاً أشهره فى وجه الأعداء، وليمنحنى وردة أعلقها فى عروة ثوبى، هذه ليلى قد عادت وجهاً عربياً، فليترجل هذا الفارس، ولينهض هذا

العاشق من قبره، ولتشرق من قلب البحر الميت شمس العرب الغاربة وراء هضاب القدس.

نهضت – يا حبى الأوحد – من موتى، وذهبت إليك، كانت خيل الغزو تسد الطرقات، سرت أناديك خلف المتاريس، أعالج بالسيف والوردة كل المداخل، ألهج باسمك "ليلي" عند اجتياز الحواجز فتفتح فوراً جميع الممرات وترفع كل الحواجز، يهرب جند العدو أمامى، وأعرف أن لقاءنا صار قريبا قريبا وأن الوصول إليك أزف، ولا بد أن نبدأ الآن فى وضع قائمة بالضيوف الذين سيأتون للعرس، إنى دفعت لك المهر وردة دم، وقد حان إتمام موعد هذا الزفاف.. فهيا تعالي.

ذهبت أناديك خلف المتاريس، جاء رصاص بنادق جيش الفرنجة يغمر جسمى، ولكن حبك حصن، فلم يستطيع كل هذا الرصاص النفاذ إلي.

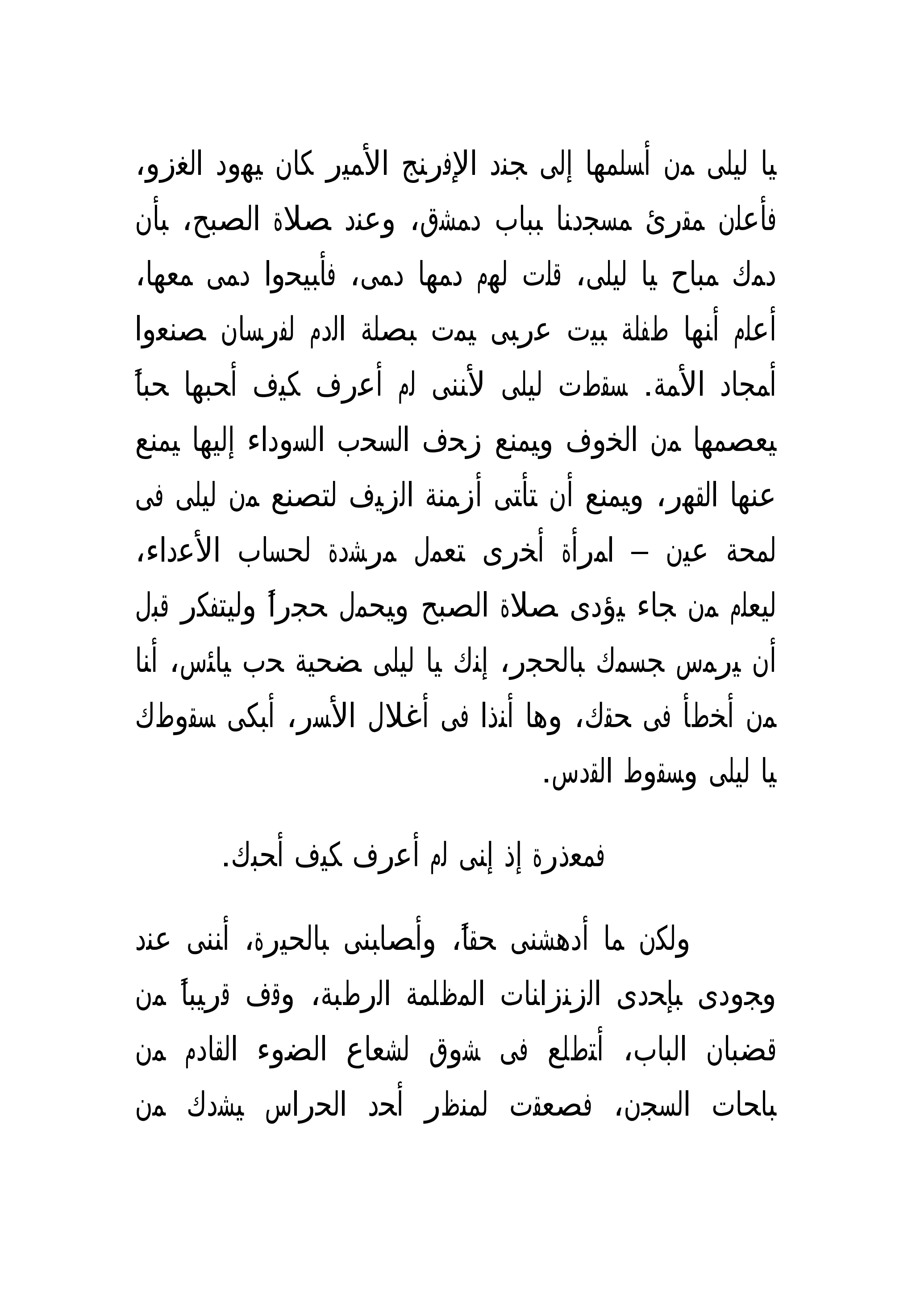
مضى الليل يا ليلى، جاء النهار، أطوف الشوارع أبحث عنك، أناديك فيرتد صوتى إلى غريباً، لأنك لا تسمعين النداء، أعرف أنك أنكرتنى، فيأتى رصاص الجنود الغزاة،

ولا شئ يحمى هطوله فوقى، رأيته يخترق الآن جسمى، ويرمينى فوق الرصيف قتيلاً، رأيت دمى الآن يجرى جداول فوق الطريق، وأنت رأيتك لحظة موتى تطلين من صورة نشرتها الصحيفة (فى الحق رأيت لك أكثر من صورة نشرتها صحف متخصصة فى تمجيد إله الروم وملك الروم وصاحب بين المال الرومي)، رأيتك فى إحداها تتعرين، وتغتسلين بحمام الملك الرومى، وتعومين بحوض سباحته وتشتغلين بتدليكه، ورأيتك فى الصور الأخرى ببذلة رقص شرقية، ترتشفين كئوس الخمر بصحة أحمد عساكرهم (لعله أحد كبار الضباط فقد وضع على إحدى عينيه عصابة) وتحتفلين بعيد دخول الروم إلى القدس، وتحتضنين – فى مجموعة صور أخري- رجال بلاط الملك الرومى، الإفرنجى الصهيونى، الأميركى، كانت فاجعتى فى حبك يا ليلى أكبر من موتى فلملمت دمى المتبعثر فوق الطرقات، وذهبت عموداً من دم، يحاول أن يقتحم قلاع الملك الرومى، كنت على ثقة من أنى لم أعرف كيف أحبك حباً يحميك، وها أنت سقطت، فلا ذهب فوراً كى أمنع عن جسدك جند الروم لو أنى قدرت، لكنى قبل وصولى بوابات القصر، سمعت

بنشرات الأخبار اسمك ضمن قوائم من قادوا الثورة ضد عساكر ملك الروم، الإفرنج، التتر، الأمير كان، وأنه مطلوب إلقاء القبض عليك، وقد وعدوا من يرشدهم إليك بجائزة كبري. كانت لبوءة ملك الروم تغذى شبليها، وتتولى حراسة مبنى إذاعة سيدها، فرأيت هوى ليلى يمنحنى عباءة ملك عربى ممن حكموا نصف الكرة الأرضية، ويمنحنى سيفاً، يمنحنى وردة، أحسست بأننى قد عدت قوياً ومنيعاً أحمل فى تلك اللحظات أمجاد فتوحات الإسلام الكبرى. تقدمت ففرت من سيفى لبوءة ملك الروم وشبلاها، وجاء العامل يتوسل كى لا أقتله، ويقود خطاى إلى حجرات البث المسموعة والمرئية، جلست أمام العدسات وأجهزة النقل المسموع، أذعت بياناً للأمة أعلنت براءة ليلى من كل التهم، وأدنت الصحف العربية، ممن تتلقى تمويلاً سرياً من صاحب بيت المال الرومى، لكى تنشر حملات التشهير بليلى، وخرجت إلى أسواق القدس أواصل بحثى عنها، لعلنى ألقاها فأطفئ، عطش القلب إلى رؤية عينيها.

ذهبت إلى حيث تعودنا أن نتلاقى بباب دمشق، فتشتت هناك عن شجرة توت كنا رسمنا بها قلباً وحفرنا

بداخله اسمينا ورشقنا سهماً فى القلب كما يفعل عشاق مدينتنا، وجدت الشجرة تحتفظ برغم الشيخوخة بذاك التذكار، صافحتها بحرارة من لاقى صديقاً بعد الحرب، وتأسفت لما طرأ على عينيها من ضعف وذبول. ذكرت لها اسمى، عرفتنى واحتضنتنى وسألتنى عنك فقلت لها ليلى قادمة يا أمى، ابتهجت أغصان الشجرة وبكت فرحاً وامتلأ القلب المرسوم عليها نضارة حتى تدفق منه الدم، رأيت السهم يغادر موقعه بجذع الشجرة ويقفز مغروساً فى صدرى، جلست إلى ظل الشجرة أنتظر قدومك، مر اليوم الأول، والثانى الثالث، والرابع، ـ والخامس، الإفرنج، التتر، الأمير كان، يقودوننى فى الفجر وعند صياح الديك – إلى الأسر، أدركت بأنك قد بحت لهم بالسر، وأنك أخبرت بمكانى جند الأعداء رأونى أشكو أمرك للشجرة، فجاءوا بفؤوس يقتطعونها عرقاً عرقاً. فصرخت أوراقها فى وقت واحد إنك يا ليلى منذ البدء مجند إفرنجية، منحوها اسماً عربياً، زرعوها منذ طفولتها بإحدى شرفات بيوت القدس الشرقية، صاحت تلك الشجرة كى يسمعها أبناء الحي- ممن منحتهم ظلاً فى الصيف ومنحتهم ثمراً فاعترفوا لها بالفضل – بأنك



يا ليلى من أسلمها إلى جند الإفرنج الأمير كان يهود الغزو، فأعلن مقرئ مسجدنا بباب دمشق، وعند صلاة الصبح، بأن دمك مباح يا ليلى، قلت لهم دمها دمى، فأبيحوا دمى معها، أعلم أنها طفلة بيت عربى يمت بصلة الدم لفرسان صنعوا أمجاد الأمة. سقطت ليلى لأننى لم أعرف كيف أحبها حباً يعصمها من الخوف ويمنع زحف السحب السوداء إليها يمنع عنها القهر، ويمنع أن تأتى أزمنة الزيف لتصنع من ليلى فى لمحة عين – امرأة أخرى تعمل مرشدة لحساب الأعداء، ليعلم من جاء يؤدى صلاة الصبح ويحمل حجراً وليتفكر قبل أن يرمس جسمك بالحجر، إنك يا ليلى ضحية حب يائس، أنا من أخطأ فى حقك، وها أنذا فى أغلال الأسر، أبكى سقوطك يا ليلى وسقوط القدس.

فمعذرة إذ إننى لم أعرف كيف أحبك.

ولكن ما أدهشنى حقاً، وأصابنى بالحيرة، أننى عند وجودى بإحدى الزنزانات المظلمة الرطبة، وقف قريباً من قضبان الباب، أتطلع فى شوق لشعاع الضوء القادم من باحات السجن، فصعقت لمنظر أحد الحراس يشدك من

شعرك ويباشر تعذيبك، رأيته يلهب ظهرك بسياط منقوعة فى الملح، فصرخت بك ليلى وقفزت أحاول أن أصل إليك وأجرى لإنقاذك، منعتنى القضبان، فبكيت الخيبة والعجز، بكيت الظن السيء بك، فها أنت يا أجمل كل نساء الدنيا – تصونين العهد. رأيت هواك يعود إلى قلبى، رأيته أسراب طيور تبنى فى صدرى أعشاشاً وتغنى، أندهش الحراس لأننى صرت وسيماً وقوى البنية وطويل القامة، رأونى فى كل دقيقة أضيف إلى طولى طولاً، أصابهم الرعب، وأرسلوا فى طلب مزيد من حراس السجن، وأنا ما زلت بمعجزة الحب النابض فى قلبى، أنمو، أكبر، أتسامق، سأهدم بعد قليل هذا السجن، سأحطم أغلال الأسر، وسنخرج يا حبى سوياً لملاقاة الشمس العربية، فانتظريني.

لكن سقمى عاودنى، وعاودنى قبحى، وضآلة حجمى، فقد ساقونى إلى التحقيق وشاهدت فى ضوء المصباح المتألق فى القبو وجها يشبه وجهك يا ليلى، وشعراً يشبه شعرك، وفما يشبه فمك، ويداً تشبه يدك، بل إنها لا تشبهها، إنها يدك تحمل فى بنصرها خاتم خطوبتنا وتشير إلى وجهى، تؤكد للحرس الملكى ممن يتولون معى التحقيق

جميع التهم المسندة إلى، لقد جاءوا بك شاهدة إثبات ضدي. صرخت بك، إنى أحبك، فلماذا لم يمنع هذا الحب سقوطهم، ولماذا تأتين مع الفجر وعند صياح الديك لتقديمى إلى جندى الأعداء.

غابت عن وجهى صورتك، تمددت على خشب التعذيب، وضعوا تاج الشوك على رأسى، وجاءوا بسلال مسامير بدءوا يدقونها فى كفى وفى قدمى، وأخذونى في سيارة شحن (جمعوا بها عدداً لا بأس به ممن رفضوا تنفيذ أوامر ملك الروم بعدم الحج إلى بيت المقدس) وزرعونا غابة صلبان تحرقها شمس الصيف، رأيتك فى ثوب أسود تأتين إلى قبرى الخشبى المنتصب على الأرض، رأيتك تحتضنين صليبى، يتعفر ثوبك بدم ينزف من بدنى، وتبكين كأنك نادمة يا ليلى.

لا تبتئسى، لا تبتئسى، أشهد وأنا أتمدد مصلوبا فى ساحات القدس، إنك يا ليلى بريئة، لتعلم هذا جميع الصحف العربية، وليعلمه جميع مذيعى نشرات الأخبار ممن دسوا ضدك كل التهم وجعلوا اسمك يا ليلى عنواناً للعار، بأنه لا

إثم عليك وأننى وحدى أتحمل مسئولية ما حدث عشية يوم الغزو، وأنا من دفعك من فوق الضفة (ضفة نهر الأردن أعنى) فوقعت رهينة بأيدى سفن الأعداء، إننى لم أعرف كيف أحبك يا ليلى حباً يمتد أمامك جسراً فوق جميع الأنهار، ويمنعك من الغرق ومن رعب التمساح النائم فوق سرير الماء.

وها أنذا فوق صليبى، أبكى سقوطك يا ليلى سقوط القدس.

أسلمتكما للأعداء، لأننى لم أعرف كيف أحبكما..

زائر المساء

(غرفة الاستقبال فى بيت إحدى سيدات المجتمع ببلد فى أوروبا الغربية حيث الصالون والمدفأة.. ومنضدة صغيرة فوقها مزهرية.. الوقت مساء. شعاع من الشمس الغاربة، يأتى عبر نافذة بالخلف. من خلال النافذة تظهر حديقة البيت خضراء مزهرة.. ترفع الستارة فنرى (الخادمة) وحدها على خشبة المسرح تفرغ منافض السجائر، وترتب أثاث الغرفة.. وتغنى لنفسها الأغنية التالية):

الخادمة: (تغني)

عالياً تطير أيها النسر

عالياً أنت تطير

هل أعرتنى جناحيك

لأقول تسبيحة حب صغيرة

إلى أغلى الرجال لدي

فى مكانه العالي

فى سمائه البعيد.

حيث يتداخل الظل بالضوء.. والضوء بالظل.

السيدة: إنك لا تصمتين لحظة عن الغناء لهذا النكرة الذى تحبين، ناسية أن تشعلى النور كما طلبت منك. لا تتعبى نفسك.. فلن تكون بك حاجة للصعود إليه إنه الآن فى منتصف الطريق هابطاً إليك.

لابد أن شمس الربيع قد أذابت سحابة الشتاء التى اختارها ملجأ له.. وسنسمع عما قريب صوت ارتطامه.. فوق سطح هذا البيت ربما (تضىء النور)

الخادمة: الشمس لم تغرب بعد يا سيدتي.. كيف نضئ النور والشمس مازالت تغمر الدنيا؟

السيدة: إن هذا كمين للظلام، ألا تفهمين يا مارثا، إنه خطوة أمن احتياطية أتخذها ضد هجوم الظلام المفاجئ.. إننى أخشى الظلام هذا المساء يا مارثا.. أخشى الظلام. ستختفى الشمس عما قريب فى مياه البحر المالحة، وسيستيقظ من نومه حيوان الظلام الخرافي.. لهذا فإن كل أنوار البيت يجب أن تضاء قبل أن يصل زاحفاً بأطرافه الأخطبوطية داخل حجرات البيت.. مغرقاً كل شيء هنا فى الهواء الأسود الذى ينفثه (لحظة صمت). مارثا: هلا أشعلت شجرة عيد الميلاد أيضاً.

الخادمة: ماذا تقولين يا سيدتي؟ هل ذكرت شيئاً عن شجرة عيد الميلاد؟

السيدة: قلت أوقديها.. مارثا..

الخادمة: ولكن.. سيدتي. تفصلنا عن عيد الميلاد أشهر عديدة مضت.. أو بالأحرى أشهر عديد تأتي

السيدة: إننى فقط أريد أن أرى شجرة عيد الميلاد مضيئة هذا الليلة.. أريد أن يغمر البيت الكثير من الضوء.. لعل هذا يزيل قليلاً من الكآبة التى أحس بها تحط فى قلبى هذا المساء.

الخادمة: أمر سيدتي.. (تخرج إلى حجرة داخلية).

السيدة: هل رأيت أزهاراً أحضرتها من الحديقة منذ قليل.

الخادمة: (من خارج المسرح) إنها هنا فى المطبخ.

السيدة: أحضريها معك.

(تحضر مارثا باقة الأزهار وشجرة عيد ميلاد متوسطة الحجم).

السيدة: (وهى تنظر إلى شجر عيد الميلاد) إنها مليئة بالغبار.. انفضيها قبل إشعالها. (تتحرك السيدة نحو إناء

الزهور لتضع الأزهار الجديدة مكان الأزهار الموجودة بالإناء)

الخادمة: (تغنى بصوت خافت مقطعاً من أغنية الاستهلال فى حين تنفض الغبار عن الشجرة.. ثم تستدرك قائلة).. بعد قليل سيطرق الباب، مثل عادته دائماً.

السيدة: نعم، إنه سيأتي، ما إن تغيب الشمس حتى يظهر هو.

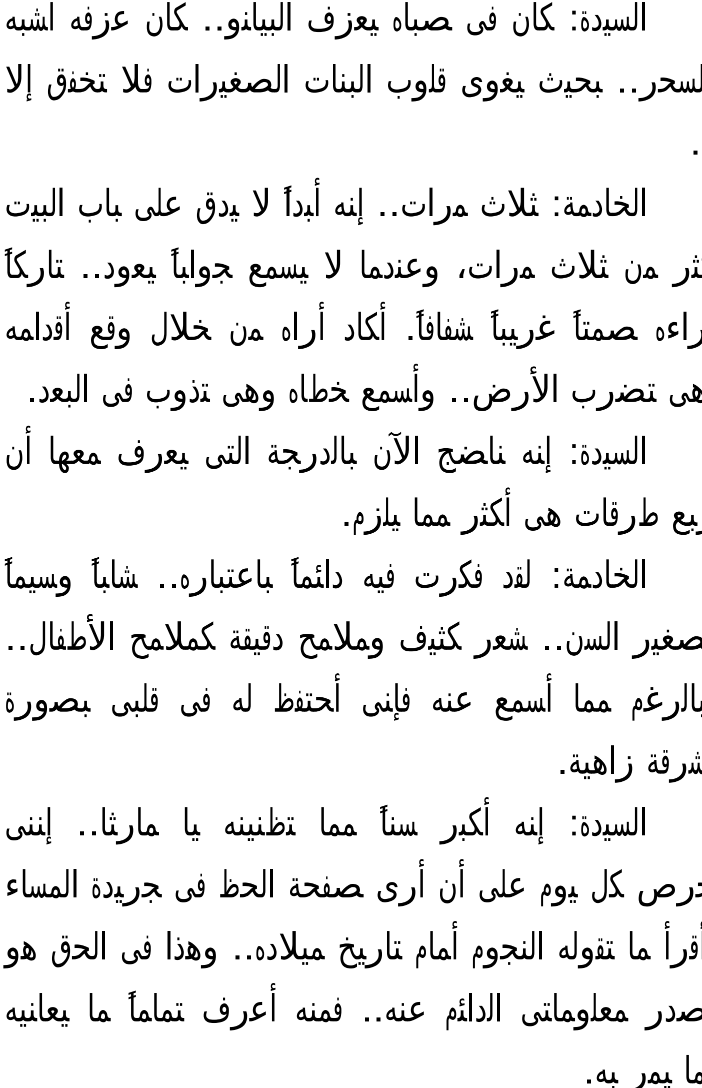
الخادمة: كما لو كان يأتى راكباً شفق الغروب. مع مجيء الشفق يجيء ما حاد يوماً عن موعده أو غير يوماً من الطريقة التى يدق بها باب البيت.

السيدة: إنه أبداً ليخشى الظلمة.

الخادمة: ربما هو يخشى النور.

السيدة: لابد أنه قد مل هذا الطرق اليومى على باب بيتنا.

الخادمة: إننى أتساءل أحياناً عن السر فى أنه لا يستعمل الجرس أبداً.. إنه فقط يأتى ويدق الباب برفق وهدوء.. تاك.. تاك.. تاك.. فى إيقاع منتظم ورتيب كأنما هو شفرة سرية.



السيدة: كان فى صباه يعزف البيانو.. كان عزفه أشبه بالسحر.. بحيث يغوى قلوب البنات الصغيرات فلا تخفق إلا له.

الخادمة: ثلاث مرات.. إنه أبداً لا يدق على باب البيت أكثر من ثلاث مرات، وعندما لا يسمع جواباً يعود.. تاركاً وراءه صمتاً غريباً شفافاً. أكاد أراه من خلال وقع أقدامه وهى تضرب الأرض.. وأسمع خطاه وهى تذوب فى البعد.

السيدة: إنه ناضج الآن بالدرجة التى يعرف معها أن أربع طرقات هى أكثر مما يلزم.

الخادمة: لقد فكرت فيه دائماً باعتباره.. شاباً وسيماً وصغير السن.. شعر كثيف وملامح دقيقة كملامح الأطفال.. وبالرغم مما أسمع عنه فإنى أحتفظ له فى قلبى بصورة مشرقة زاهية.

السيدة: إنه أكبر سناً مما تظنينه يا مارثا.. إننى أحرص كل يوم على أن أرى صفحة الحظ فى جريدة المساء وأقرأ ما تقوله النجوم أمام تاريخ ميلاده.. وهذا فى الحق هو مصدر معلوماتى الدائم عنه.. فمنه أعرف تماماً ما يعانيه وما يمر به.

الخادمة: لقد مضى الآن ما يقرب من عام منذ أن بدأ فى المجيء إلى باب بيتنا.. ومنذ ذلك الحين لم يفشل يوماً واحداً فى أن يؤدى طرقاته اليومية.. حتى فى أقصى عنفوان الشتاء بأمطاره وثلوجه لم يتوقف عن المجيء.. أو عن طرق الباب.. إن المرء ليحتاج إلى طاقة جبارة من الإصرار لأن يفعل ذلك بنفس هذه الدقة والمثابرة.

السيدة: لقد كان طوال عمره عنيداً.

الخدامة: هل قرأت ما تقوله النجوم عن حظة اليوم..

السيدة: لم أفعل بعد؟

الخادمة: أى الأشهر هو؟ (تلتقط الجريدة من منضدة قريبة)

السيدة: إبريل

الخادمة: وأى الأيام هو يوم ميلاده؟

السيدة: لا تشغلى بالك بهذا.. اتركى الصحيفة جانباً واهتمى بتنظيف الشجرة.

الخادمة: إنها لا تأخذ منى دقيقة.. أى الأيام فى شهر إبريل؟

السيدة: الرابع عشر.

الخادمة: (تتمعن فى الجريدة) سيدتي. أليس اليوم هو الرابع عشر من إبريل.

السيدة: (بدهشة) ماذا تقولين يا مارثا.

الخادمة: نعم.. إنه اليوم.. (بسعادة) إذا اليوم عيد ميلاده.. عيد ميلاده يا سيدتي.

السيدة: (بعد لحظة تفكير) كأننى كنت أدرك هذا.. إحساس غامض دفين كان يلازمنى طيلة المساء.. كأننى كنت أعرف..

الخادمة: (بكآبة مفاجئة) إذا فهو لن يأتى اليوم مع غروب الشمس.. لن يدق كما هى عادته كل يوم باب بيتنا. سنفتقده إذن هذا المساء.

السيدة: لماذا؟ لماذا تقولين إنه لن يأتى اليوم؟

الخادمة: بالتأكيد.. سيذهب ليحتفل بعيد ميلاده فى مكان ما.. لن يجد وقتاً ليأتي، خاصة وهو يعرف أن أحداً لن يفتح له الباب.. أو يقول عيد ميلا سعيد على الأقل.

السيدة: سيكون هنا تماماً فى الموعد المحدد.. اذهبى وضعى الإناء فوق النار.. وأعدى المائدة لشاى المساء.. فأنا أشعر بأنه سيكون ضيفنا هذه الليلة..

الخادمة: هل معنى ذلك أنك ستسمحين له بالدخول إلى البيت إذا جاء.. أرجوك يا سيدتى لا تفعلى هذا.. إنها مجازفة كبيرة، لا أحد يدرى عواقبها، أنت تعرفين مدى خطورة الرجل.

السيدة: إنه لا يبحث عن المتاعب.. إنه رجل يبحث عن مخبأ.

الخادمة: ولكن كيف تستقبلين فى البيت مجرماً.. هارباً، تطارده سلطات الأمن فى كل مكان.. إن لديك اسمك الطيب واسم المرحوم زوجك.. وأن تضعى فى الاعتبار سمعة ملاجئ الأيتام التى تشرفين عليها.. فكرى فى كل ما يمكن أن يجلبه هذا من تأثير سيئ على المكانة الاجتماعية التى تحتلينها والشركة التى ترأسينها.. لا تنسى مسئولياتك الكبيرة يا سيدتي.

السيدة: فعلاً لقد حان الوقت لأن أعى مسئولياتي.

الخادمة: ثمة شيء آخر.. لو تسمحين له بالدخول اليوم فإنه يكون قد حقق غرضه، ولن يأتى بعد ذلك ليطرق الباب أبداً، وستكون حياتنا شيئاً لا يطاق بدون دقاته اليومية. لقد صار مجيئه جزءاً من طقوس المساء.. يضيف لوناً ونكهة

لامسياتنا.. إننى لا أستطيع تخيل أمسية تمر دون دقاته الحميمة فوق باب البيت.. إنك لن تضحين بهذا أيضاً.

السيدة: من أدراك أنه لن يتوقف عن المجيء وهو لا يجد غير الصدود طيلة عام كامل.

الخادمة: إنك تخطئين يا سيدتي.. أنا على ثقة من أنه يستمتع بهذا الصدود.. فلقد صار المجيء إلى بابنا عادة محببة إلى قلبه لا يستطيع تركها.. يجيء ليطرق الباب ثم يعود كأنما هى طبيعة الأشياء أرادت ذلك.. فدعى الأمر كما هو يا سيدتي.. لا تتدخلى فيما أرادته الطبيعة كى لا يختل الميزان.. لا تفتحى الباب الآن يا سيدتى إذ إنه لا معنى لأن تتركيه بالخارج عاماً كاملاً ثم تأتى الآن وتفتحين له الباب.

السيدة: أنا ملزمة بأن أفتح له الباب يا مارثا.. لا أستطيع أن أبقيه خارج البيت لمجرد التسلية.

الخادمة: أأنت حقاً ملزمة بأن تفتحى له الباب يا سيدتي؟ وإذا لم يأت اليوم. إذا ذهب محتفلاً بعيد ميلاده فى مكان ما.

السيدة: إنه سيأتي، وسيحتفل بعيد ميلاده هنا.. (لحظة صمت) ذلك أنه يعرف أن الميعاد قد حان لأن يفتح له الباب.

الخادمة: إنه يهددك إذن يا سيدتي، لابد أن يهددك بطريقة ما.. كنت على ثقة من أن مجرماً مثله لا بد وأن..

السيدة: (تقاطعها) سيكون ضيفنا على الشاى هذا المساء.. ضعى على المائدة أكواباً فضية بدلاً من أكواب الاستعمال اليومي.. دعيه يحس بأننا نحتفى بقدومه.. اجعلى كل شيء يبدو مبهجاً بما فيه الكفاية.

(مارثا تضيء شجرة عيد الميلاد. ثم تذهب إلى المطبخ.. السيدة تجلس وتأخذ الجريدة تتصفحها.. مارثا تعود).

الخادمة: وضعت الإناء فوق النار.. (تنتبه إلى أن السيدة تقرأ الصحيفة) أتقرئين باب الحظ؟

السيدة: لقد حان ذهابك يا مارثا.

الخادمة: يجب أن أبقى يا سيدتي، لأفتح له الباب وأقدم له الشاي.

السيدة: سأفتح له أنا الباب وأقدم الشاي.

الخادمة: ولكن سيدتي.

السيدة: عودى إلى بيتك.. مارثا.

الخادمة: أود فقط أن ألقى عليه نظرة.

السيدة: سترينه فيما بعد.. مارثا.

الخادمة: لكنى لا أعرف مكاناً غير هذا المكان أذهب إليه.

السيدة: يجب أن أقابله وحدي.. (تأخذ بعض النقود من حقيبة يدها) سيساعدك هذا فى العثور على مكان تأوين إليه.

الخادمة: هل أحضر غداً فى الصباح.

السيدة: تعالى متى تشائين. (السيدة تدير ظهرها لمارثا التى تترك الغرفة إلى حجرة داخلية. تأخذ معطفها وحقيبة يدها وتخرج. الشمس غربت الآن. السيدة تشعل سيجارة. تتفقد وعاء الزهور وشجرة عيد الميلاد. تتصفح الجريدة.. بقلق.. فترة وجيزة ثم يطرق الباب). (تخرج السيدة تفتح الباب)

صوت الرجل ـ (من خارج المسرح) طاب مساؤك.. اليزابيث. (يظهر الرجل على المسرح. فى الأربعينيات من عمره، قامة فارهة وبناء عضلى قوي، يرتدى ملابس تقليدية ذات ألوان زاهية. يحمل معه ربطة من الزهور الذابلة)

السيدة: لقد تقدمت بك السن يا دونالد.

الرجل": وأنت كما أنت، اليزابيث، لا شيء فيك قد تغير.

السيدة: إننى امرأة وحيدة.. أدركها الكبر.

دونالد: لكن التوهج الذى كان يفيض به وجهك مازال ذات التوهج.

السيدة: (بعد لحظة صمت) هل هم يتبعونك؟.

دونالد: من هم؟

السيدة: الناس الذين يتبعونك.

دونالد: إنهم لا يعرفون لى مكاناً.

السيدة: ألم تتعب من هذه اللعبة.

دونالد: لا أتعب منها أبداً لأننى ألعبها جيداً.. حتى عندما كنت صغيراً كنت أكثر الأطفال موهبة فى العثور على مكان أختبئ فيه.. عندما نلعب ألعاباً كالتى ألعبها أنا الآن.

السيدة: (فجأة) لماذا جئت؟

دونالد: كنت ماراً بالصدفة من أمام البيت، ورأيت أنه من اللائق أن آتى إلى هنا.. طالما أن لديك مناسبة تحتفلين بها (يقدم لها الزهور) عيد ميلاد سعيد لك يا سيدتي.

السيدة: (تأخذ الزهور) عيد ميلاد سعيد لك أنت أيضاً.. لكن هذه الزهور تعنى أن الزيارة كانت مقصودة.

دونالد: إنه الربيع.. ينتشر فى كل مكان خارج البيت والزهور أيضاً فى كل مكان.. لا يقتضى الأمر إلا أن يمد الإنسان يده ويقطفها. ضعيها فى الإناء.. إن لديها عبيراً معتقاً.

السيدة: شكرا على أى حال (تضع الزهور فى الإناء بدلاً من الزهور التى كانت موجودة أصلاً) يبدو أنك انتظرت طويلاً.

دونالد: الانتظار.. إننى أمارسه بخبرة ومهارة لا مثيل لهما منذ أول يوم عرفت فيه العمل لحساب الآخرين.

السيدة: لقد كنت دائماً طفلاً صعباً.

دونالد: وكنت أنت دائماً بابا مفتوحاً لي.

السيدة: ولكنك ذهبت بعيداً.. صرت إنساناً آخر مداناً من كل الناس، أخبار الجرائم التى ترتكبها فى كل صحيفة.. إنك مطلوب.. مطلوب.

دونالد: إن هذا أفضل من أن يكون الإنسان غير مطلوب من أحد.

السيدة: ذهبت إلى السجن مرات عديدة.

دونالد: وحطمته وخرجت منه مرات عديدة أيضاً.

السيدة: أناس أبرياء (صمت) أنت قتلتهم (صمت) لقد كانوا أبرياء.

دونالد: بينما أنت هنا تقدمين التبرعات الطائلة لجمعيات الأيتام.

السيدة: لقد كنت هناك بالخارج لا تفعل شيئاً سوى اغتيال سعادة الناس الأبرياء.

دونالد: وأنت هنا لا تفعلين شيئاً سوى الاعتناء الكامل بالأعمال التجارية التى خلفها زوجك الراحل.

السيدة: إننى أخشاك يا دونالد.

دونالد: لا تخشين شيئاً طالما أن أعمالك التجارية رائجة.

السيدة: لقد كانوا أبرياء.

دونالد: لا أحد بريء.

السيدة: الأيتام أبرياء (صمت) لقد كنت يتيماً أنت نفسك، عمرك ستة أيام عندما جاءوا بك إلي.. غزت براءة

وجهك قلبي.. فوضعتك فوق حجرى ومنحتك صدري، أرضعتك وغذيتك حتى صرت كبيراً.

دونالد: ثم طلبت منى أن أذهب.. رميت بى إلى بحر هائج وقلت لى حان وقت الإبحار.

السيدة: كان ذلك عندما بلغت سن الفطام.

دونالد: وحيث أنى ذهبت مبحراً تحت رايتك الخاصة.. فإن كل الرحلة لم تكن إلا نزهة.

السيدة: طموحك العظيم هو أن تغزو هذا العالم.

دونالد: ليس مهماً إذا ما كنت قد غزوت العالم أو لم أغزه طالما أننى لم أكن هناك بالخارج إلا لأداء مهمة محددة، هى أن أقدم إمدادات لملاجئ أيتامك، أغذيها بأيتام جدد.. لكى تواصلى المسيرة..

السيدة: ما ظننت عمرى أنك ستغدو شريراً إلى هذا الحد.

دونالد: ليس سهلاً أن تنفضى يدك من الأمر بكل هذه البساطة، ومهما كان ظنك بى فأنت تعرفين تمام المعرفة أننى كنت هناك بالخارج أفعل ما أردتنى أن أفعل، أنجز مهمة أنت أوفدتنى إليها وكلما فعلت شيئاً كنت أفكر فيك

جالسة هنا فى ركنك المفضل تقرئين بسعادة بالغة أخبار ما فعلت فى صحف اليوم التالى عارفة أننى أفعل ذلك بالنيابة عنك.

السيدة: ليس ثمة من دليل على ما تقوله فأنا باعتبارى أرملة رجل حاز فى الاقتصاد أعظم الأوسمة حاولت دائماً أن أرتفع إلى مستوى السمعة التى خلفها وراءه المرحوم، أن أواصل ما بدأ وأقود حياة كريمة شريفة.

دونالد: وباعتبارك رئيسة مجلس الإدارة فأنت حريصة على أن تزدهر أعمال الشركة تحت رئاستك..

السيدة: وأن أنشر السعادة والهناء بين التعساء من الناس.

دونالد: أرامل رجال لم يأخذوا أوسمة. (يصفر إناء الشاى فى المطبخ)..

السيدة: حان ميعاد الشاي.. (يذهب دونالد إلى جهاز الأسطوانات ليضع أسطوانة حديثة. يرقص على الموسيقى. تدخل السيدة تجر منضدة الشاى الصغيرة وعليها إناء الشاى واثنان من الأكواب الفضية وقطعتى جاتوه. تملأ فنجانا له وآخر لنفسها).

السيدة: (وهى تقدم له فنجان الشاي) نست الخادمة أن تحضر شموعاً تعمل بها كعكة العيد.. ليعد عليك بالخير والهناء.

دونالد: وأنت أيضاً.. بالمناسبة لا بد أنك قد كتبت وصيتك الآن.

السيدة: هل هذا ما جئت من أجله.

دونالد: إننى هنا فقط من أجل أن أراك سعيدة.

السيدة: ألست باقياً هنا.

دونالد: تعرفين تمام المعرفة أننى لا أستطيع أن أبقى.

السيدة: إنك هنا لكى تبقى.. دونالد.. إنهم يبحثون عنك فى كل مكان.. سوف يجدونك، ولسوف يأخذونك إلى السجن مرة أخرى. وربما يصل الأمر إلى حد شنقك..

دونالد: إننى لست باقياً.. وأنت تعرفين ذلك.. لقد جئت فقط لأذكرك بالوصية. إن لدى مهاماً لا بد من إنجازها بعد أن أكون قد أكملت مهمتى هنا.

السيدة: يجب ألا تذهب.. يا دونالد.

دونالد: يجب أن أذهب.. اليزابيث..

السيدة: لماذا يجب أن تذهب؟ هل هو موعد؟

دونالد: حسناً.. إنه موعد..

السيدة: أين مكانه؟

دونالد: ليس بعيداً.

السيدة: مع من هذا الموعد؟

دونالد: أحد الناس ممن لا تعرفين.

السيدة: ما هو اسمه؟

دونالد: لم هذا الاستجواب؟

السيدة: تواعد امرأة هذه الليلة، أليس كذلك؟. تسألها أن ترافقك إلى النادى الليلي.. تدعوها إلى وجبة عشاء فخمة، ورقص يمتد إلى آخر الليل وما إلى ذلك.

لا بد أنها طفلة غرة، ترضى زهوك الذى لا حد له.. كم عمرها يا ترى.. أربعة عشر.. خمسة عشر.. يفضل أن تكون شقراء.. أو فقط ذات جمال ملحوظ كما يحلو لك التعبير.

إلى أين ستأخذها يا ترى؟ ملهى الدانيوب.. أليس هو ملهى الدانيوب؟.. أكثر الأماكن فى المدينة أمناً بالنسبة لرجل هارب من العدالة حيث الأضواء ناعمة خافتة تضفى على ملامحك طابعاً من النبل المزيف؟ وبسلوك مبالغ فى وجاهته

سوف تسأل الساقى زجاجة من الشامبانيا ومقداراً كافياً من الكافيار.. شيء يليق بمناسبة كهذه؟

وستذوب الطفلة السكيرة تحت تأثير كرمك وشهامتك ونبل ملامحك.. بعد ذلك ـ سيحين موعد الرقص.. نحن جميعاً نعرف كم أنت بارع فى الرقص.. نحن جميعاً نعرف أنك تفضل الرقص بطيئاً.. لذا كن رفيقاً بأضلع الطفلة الصغيرة.. لا تحطم صدرها الغر.. فالليلة لم تنصرم بعد.. انتهى الرقص.. وهمست لها بقصيدة الأنجم السعيدة التى تحتفظ بها لمثل هذه المناسبات.. وحان الآن موعد ذهابكما معاً إلى ركنك المظلم حيث تختبئ النهار كله. وبعد أن تكون قد مضغت لبانتك معها.. لا شيء تبقى سوى أن تسألها السؤال المعتاد: ما هى رغبتك الأخيرة؟

وقبل أن تفتح شفتيها لتجيب تمد إليها ذراعين كذراعى الأخطبوط وتلتف حول عنقها الصغير أصابع يعلوها الشعر، ودونما رحمة، بل بنشوة ولذة.. تكتم أنفاسها.. قل لي: أنا مخطئة.. قل إن هذا كذب. (تبكي).

دونالد: إن هذه أعراض سيئة لمرض خطير.. اليزابيث. إنك تعرفين أننى لم أتصرف يوماً بمحض إرادتي،

كنت دائما مجرد الخادم المنفذ لرغباتك.. المطيع لها طاعة عمياء.

السيدة: لا تذهب إذن. ابق هنا. كفاك تسكعاً وسفكاً للدماء.

دونالد: لم أخلق للبقاء داخل البيوت. متعتى الوحيدة فى الدنيا أن أكون فى الهواء الطلق مؤدياً واجباتي.

السيدة: ناشراً الموت.

دونالد: والارتياح.

السيدة: ألا تستطيع أن تضع حداً لكل هذا؟.

دونالد: لا أستطيع.. اليزابيث.

السيدة: ألا تحاول.

دونالد: لا فائدة، وصلت إلى نقطة اللاعودة. (تتوقف السيدة عن بكائها الخفيف)

دونالد: (بعد فترة صمت) اليزابيث.

السيدة: ماذا تريد يا دونالد؟

دونالد: جففى دموعك.

(السيدة تجفف دموعها بمنديل معها.. لا تقول شيئاً).

دونالد: والآن.. اليزابيث.

السيدة: والآن ماذا؟

دونالد: (واقفاً) لنبدأ العمل الآن.

السيدة: (تقف مرتجفة.. وهى تحاول التراجع إلى الخلف).. العمل؟؟

دونالد: تعالى إلى هنا.. اليزابيث (هى لا تتحرك، يتجه دونالد نحوها فى خطو بطئ) تعالى إلى هنا. أخبرينى الآن.

(يمد نحوها ذراعيه.. يتجه فاتحاً يديه نحو عنقها.. بينما هى تتجمد رعباً)

ما هى رغبتك الأخيرة؟

(ستار)